

ق قصص قصيرة

١٢ حكاية عجيبة

للكاتب الكولمبى جابرييل جارثيا ماركث

ترجمة : د. محمد أبو العطا


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب



١٢ حكاية عجيبة

الطبعـــــة الأولـــى ١٩٩٢

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصـــفاة ٣١٣٣ – الكـويت
ص . ب : ١٣ المقطم – القاهرة

☎ ٣٤٩٧٧٧٩
٣٤٩١٧٢٧

رقم الايداع
٩٣ – ٢٢٧٠
I.S. B. N
977 - 07 - 0246 - B

الاشراف الفنى : حلمى التونى



قصــص

١٢ حكاية عجيبة

للكاتب الكولمبى جابرييل جارثيا ماركث

ترجمة : د . محمد أبو العطا



دار سعاد الصباح


تليجرام
غواص في بحر الكتب

تصـــدير

صدرت هذه المجموعة القصصية فى النصف الأول من هذا العام ، وفى ذكرى مرور ربع قرن على صدور رائعة جابرييل جارثيا ماركث « مائة عام من العزلة » (١٩٦٧) التى يعدها النقاد حجر الزاوية فى الرواية المعاصرة .

ومقدمة الكاتب تغنى القارىء عن أية مقدمات ، حيث يفسر فيها ملابسات كتابة هذه الاثنتى عشرة قصة « الرحّالة » ، وهى (أى المقدمة) ، فى رأينا ، قصة أخرى ممتعة يمكن الزج بها إلى حصاد الكاتب القصصى المتميز ، ولو كتب هذه السطور الأرجنتينى خورخي لويس بورخِس لأطلق عليها « مقدمة مقدمات » .

وعنوان هذه المجموعة بالإسبانية هو : " Doce cuentos Peregrinos "

وصدرت طبعتها الأولى عن دار نشر « موندادورى » الإسبانية ، مدريد ، ١٩٩٢

وهى الطبعة التى استعنا بها فى ترجمة النص إلى العربية .

د . محمد أبو العطا عبد الرءوف

القاهرة – ديسمبر ١٩٩٢

مقدمة

كتبت قصص هذه المجموعة الاثنتى عشرة على مدى الثمانية عشر عاماً الأخيرة . قبل أن تصل إلى شكلها الحالى ، كانت خمس منها خواطر صحفية وسيناريوهات أفلام وواحدة مسلسلاً تليفزيونياً . وأخرى رويتها فى لقاء مسجل منذ خمسة عشر عاماً وقام الصديق الذى قصصتها عليه بكتابتها ونشرها ، وأعدت صياغتها الآن بناء على مانشره .

كانت تجربة إبداعية تستحق الآن التفصيل ، على الأقل حتى يعرف الأطفال الذين يريدون أن يصبحوا كتاباً ما فى مهنة الكتابة من حيرة قائمة وقلق .

واتتنى فكرتها الأولى فى مطلع السبعينات ، بصدد حلم استشفافى رأيته فى منامى بعد خمس سنوات من الإقامة في برشلونة . رأيت فيما يرى النائم أننى أحضر جنازتى ، أسير على قدمى بين جمع من أصدقائى يلبسون الحداد فى وقار ، لكن فى احتفالية . كنا نبدوا سعداء بلقائنا ، وكنت أشدهم سعادة بتلك الفرصة الطيبة التى أتاحها لى الموت كى ألتقى بأصدقائى من أمريكا اللاتينية ، الأصدقاء القدامى ، أحب الأصدقاء ، الذين لم أكن قد رأيتهم منذ أمد بعيد .

فى نهاية المراسم ، شرعوا فى الرحيل . أردت أن أصاحبهم بيد أن واحداً منهم أوضح لى فى جدية صارمة أن الحفلة بالنسبة لى قد انتهت . قال : أنت الوحيد الذى ليس بوسعك أن تذهب . حينئذ فقط أدركت أن الموت هو

ألا نلتقي بالأصدقاء مرة أخرى . لا أدرى لمَ فسرت ذلك الحلم النموذجى على أنه تمسك بهويتى ؟ ولقد اعتبرته انطلاقة للكتابة عن الأشياء الغريبة التى تحدث لأهل أمريكا اللاتينية فى أوروبا .

كان اكتشافاً مشجعاً لأننى قبيل ذلك كنت قد انتهيت من رواية « خريف البطريرك » ، أشد أعمالي وعورة ومعاناة ، ولا أجد الطريق إلى مواصلة الكتابة.

خلال عدة أعوام ، دونت ملاحظات بالموضوعات التي كانت تطرأ على ذهنى ولم أقرر بعد ماذا أفعل بها . ونظراً إلى أننى فى الليلة التى قررت فيها بدء صياغة تلك الملاحظات لم يكن لدى فى بيتى دفتر للكتابة ، أعارنى أولادى كراساً مدرسياً وكانوا هم أنفسهم يحملونه معهم فى حقيبتهم المدرسية ، خلال تنقلاتنا الكثيرة ، خشية أن يضيع . بلغ عدد الموضوعات المدونة بكل تفاصيلها أربعة وستين موضوعاً لا ينقصنى سوى كتابتها .

كان ذلك فى المكسيك ، بعد عودتى من برشلونة فى ١٩٧٤ ، عندما عنّ لى جلياً أن ذلك الكتاب لا ينبغى أن يكون رواية ، كما بدا لى فى بادىء الأمر ، وإنما مجموعة قصصية تقوم على وقائع صحفية تخلصها حيل الشعر من طبيعتها الفـــانية .

حتى ذلك الوقت ، كنت قد نشرت ثلاث مجموعات قصصية . ومع هذا ، لم تكن أى منها قد استلهمت أو كتبت ككل متكامل ، بل كانت كل قصة قصيرة منها قطعة مستقلة وعارضة . وعلى هذا الأساس تراءت لى كتابة الأربع والستين قصة مغامرة ممتعة لو تمكنت من صياغتها جميعاً بنفس الرسم وبوحدة داخلية فى النبرة والأسلوب بحيث لا تتجزأ فى ذاكرة القارىء .

كتبت القصتين الأوليين - « أثر دمك على الجليد » و« صيف السيدة فوربس السعيد » - فى عام ١٩٧٦ ونشرتهما على الفور فى ملاحق أدبية فى

عدة دول . لم استرح يوماً واحداً ، ولكن في منتصف القصة الثالثة والتي كانت ، بهذا الصدد ، تتناول موضوع جنازتي ، شعرت بأنها أتعبتني أشد من كتابة أية رواية . وحدث هذا أيضاً مع القصة الرابعة ، فلم تواتني الشجاعة لمواصلة الكتابة .

والآن أعلم السبب : يعدل مجهود كتابة قصة قصيرة نفس مجهود بدء أية رواية . ففي أول فقرة من فقرات الرواية ينبغي أن تتحدد بنية ولهجة وأسلوب وإيقاع وطول العمل وربما سمة من سمات بعض شخصياته . بعد هذا ، تأتي متعة الكتابة ، أعظم المتع حميمية ووحدة على الإطلاق . ولا يظل الكاتب ينقح كتابه ما بقي له من عمر لأن الإرادة الحديدية التي يتطلبها بدؤه هي وحدها التي يمكن أن تنهيه . وليس للقصة القصيرة ، في المقابل ، بداية أو نهاية : قد تصيب وقد تخفق . إذا لم تصب فإن تجربتي وتجارب الآخرين تعلمنا أن الأصح في أغلب المرات هو الشروع في كتابتها من جديد وفي اتجاه آخر أو إلقاؤها في القمامة .

وفسر شخص لا أتذكره ذلك جيداً بجملة فيها عزاء : « يقدر الكاتب الجيد بحجم ما يمزقه لا ما ينشره » . صحيح أنني مزقت المسودات والملاحظات ، بيد أنني قمت أيضاً بما هو أسوأ من ذلك : ألقيت بها في النسيان .

أتذكر أن الكراس كان على مكتبي بالمكسيك ، غارقاً في عاصفة من الأوراق ، حتى عام ١٩٧٨ . وفي يوم من الأيام ، بينما كنت أفتش عن شيء آخر، انتبهت إلى أنه غاب عن ناظري منذ فترة . لم أهتم لذلك . ولكنني عندما تيقنت من أنه ليس على مكتبي أصبت بنوبة ذعر . لم أترك مكاناً في منزلي لم أفتش فيه . حركنا الأثاث وفككنا المكتبة حتى نتثبت من أنه لم يقع خلف الكتب ، وأخضعنا الخدم والأصدقاء لتحريات لا تغتفر . لكن لا أثر . والتفسير الوحيد –

وربما التفسير الأفضل – أن يكون قد أخذ طريقه إلى سلة المهملات فى واحدة من عمليات إبادة الأوراق التى أقوم بها بكثرة .

فاجأنى رد فعلى : تحولت الموضوعات التى أهملتها خلال أربع سنوات إلى مسألة شرف . وفى محاولة لاستعادتها بأى ثمن ، وكانت فى نفس وعورة محاولة كتابتها ، أعدت كتابة عناصر ثلاثين موضوعاً . ولما كان مجهود تذكرها ، فى حالتى ، بمثابة المطهر شرعت أصفى بلا رحمة الموضوعات التى تبين لى أن من المستحيل إنقاذها فتبقى ثمانية عشر موضوعاً .

فى هذه المرة ، شجعنى قرارى هذا على استئناف الكتابة بلا توقف ، ولكننى سرعان ما أحسست بأننى أفقد حميتى . ومع ذلك ، وعلى عكس ما كنت أنصح به الكتاب الجدد ، لم ألق بها فى القمامة ، بل حفظتها مرة أخرى . لعل وعسى ..

وعندما بدأت روايتى :

" CRO`NICA DE UNA MUERTE ANUNCIADA "

تأكد لى أننى ، بين كتاب وآخر ، أفقد عادة الكتابة ، ويشق علىّ البدء من جديد ، وعلى نحو أشد فى كل مرة . لذا فبين شهر أكتوبر من عام ١٩٨٠ ، وشهر مارس من عام ١٩٨٤ ألزمت نفسى بكتابة خواطر أسبوعية فى صحف عدة دول كنظام لأحتفظ بذراعى دافئة . عندئذ ، ارتأيت أن مشكلتى مع ملاحظات الكراس هى مشكلة عدم تأكدى من نوعها الأدبى ، وأنها فى الواقع لا يجب أن تكون قصصاً بل خواطر صحفية . لكننى بعد نشر خمس منها عدت فغيرت رأيى: كان من الأفضل أن تتحول إلى أفلام . وهكذا رأت النور خمسة أفلام ومسلسل تليفزيونى .

ومـالم أكن أتوقـعـه هـو أن يؤثر العـمل الصـحـفى والسـينمـائى فى بعض أفكارى بشـأن القـصـة القـصـيرة ، إلى حـد أننى اضطررت إلى فصل أفكارى الخاصة عن الأفكار التى أضافها المخرجون عند كتابة السيناريو بدقة وحرص شديدين وذلك عند كتابة هذه القصص الآن فى صيغتها النهائية . كما أوحى إلى العمل مع خمسة مبدعين مختلفين فى نفس الوقت بطريقة أخرى لكتابة القصص: كنت أبدأ إحداها فى أوقات فراغى ، وأتركها عندما ينتابنى السأم أو عندما يطرأ أى مشروع آخر غير منتظر ثم أبدأ قصة أخرى .

بُعيد سنة ، كان مصير ستة من الموضوعات الثمانية عشر سلة المهملات ، من بينها موضوع قصة جنازتى لأننى لم أستطع أن أصيغه بنفس احتفالية الحلم . أما القصص الأخرى فيبدو أنها بدأت تنبض بالحياة لتعيش عمراً مديداً، وهى قصص هذا الكتاب الاثنتا عشرة .

فى سبتمبر الماضى ، كانت معدة للطبع ، بعد عامين آخرين من العمل المتقطع ، وهكذا كانت ستنتهى رحلتها المستمرة ذهاباً وإياباً إلى سلة المهملات ، لولا أن عضنى شك أخير بأنيابه . فقد كنت قد رسمت مدن أوروبا المختلفة التى تقع فيها الأحداث من الذاكرة وعن بعد ، وأردت التثبت من صحة ذكرياتى بعد مرور عشرين سنة تقريباً ، فقمت بسفرة تفقدية سريعة إلى برشلونة وجينيف وروما وباريس . لم تكن لأى منها أية علاقة بذكرياتى .

ككل أوروبا فى الوقت الحالى ، كانت جميعها تشهد تحولاً رهيباً : فالذكريات الحقيقية لاحت لى أشباحاً من الذاكرة أما الذكريات الزائفة فكانت مقنعة إلى حد أنها زيفت الواقع ، وأضحى مستحيلاً أن أستبين الخط الفاصل بين الإحباط والحنين إلى الماضى . ثم كان قرارى النهائى . لقد عثرت أخيراً

على ما كنت أفتقر إليه لأنتهى من الكتاب ، وكان مرور الزمن وحده كفيلا بمنحى إياه : منظور الزمن .

وعند عودتى من تلك السفرة السعيدة ، أعدت كتابة جميع القصص من جديد فى ثمانية أشهر محمومة لم اضطر خلالها لمساءلة نفسى أين ينتهى الواقع وأين يبدأ الخيال ؟ يعاودنى الشك فى أن ما عشته منذ عشرين عاماً فى أوروبا ربما كان وهماً . حينئذ تحولت الكتابة إلى طلاقة شديدة حتى أننى أحياناً كنت أحس بأننى أكتب لمتعة القص وحدها والتى ربما كانت أشبه الحالات الإنسانية بانعدام الوزن .

وبالعمل فى جميع القصص فى آن واحد وبالانتقال من واحدة إلى أخرى بحرية كاملة تولد لدى منظور عام خلصنى من متاعب البدايات المتلاحقة وساعدنى على رصد التكرارات العارضة والتناقضات المميتة . وأعتقد أننى حصلت بذلك على أقرب شكل للمجموعة القصصية التى أردت كتابتها دائماً .

وها هى ذى على أهبة الاستعداد لحملها إلى منضدة القراءة بعد مشوار وعر من الكفاح من أجل الحياة بعد شرور الحيرة .

فيما عدا القصتين الأوليين ، انتهيت منها جميعاً معاً وتحمل كل منها تاريخ بدء العمل فيها ، كما أن ترتيبها فى هذه الطبعة هو نفس ترتيبها فى كراس ملاحظاتى .

لقد اعتقدت دائماً أن كل صياغة جديدة لأية قصة هى أفضل دائماً من سابقتها . ولكن كيف لى أن أعرف أياً منها ينبغى أن تكون الأخيرة ؟ إنه أحد أسرار المهنة ، ولا يخضع لقوانين الذكاء بل لسحر الغريزة ، كالطاهية عندما تتأكد من أنها انتهت من طهو الحساء .

على أية حال ، ومنعاً للحيرة ، لن أعاود قراءتها ، مثلما لم أعاود قراءة أى كتاب من كتبى خشية الندم . ومن يقرأها حر فيما يفعل بها . من حسن طالع هذه القصص الاثنتى عشرة « الرُّحَل » أن يكون إلقاؤها فى سلة الأوراق مثل راحة العودة الى الديار .

جابرييل جارثيا ماركث

قرطاجنة دى إندياس - أبريل ١٩٩٢

الحكاية الأولى

رحلة سعيدة

سيـدى الرئـيس

جلس على المقعد الخشبى تحت أوراق الشجر الصفراء بالمتنزه الموحش يتأمل البجع المغبر ويداه مستندتان إلى مقبض عصاه الفضى ، يفكر فى الموت . حين جاء إلى چينيڤ فى المرة الأولى ، كانت البحيرة ساكنة وصافية وكانت ثمة نوارس وديعة تقترب لتـأكل فى يده ، وبنات هوى كأشباح السادسة مساءً بكرانيش الأورجاندا ومظلاتهن المخملية . والآن ، كانت المرأة الوحيدة على مرمى البصر هى بائعة الزهور على الرصيف القفر . ماكان ليصدق أن الزمن قد ألحق مثل ذلك الضرر بحياته وبالعالم أيضاً .

كان هو مجهولاً آخر فى مدينة المجهولين العظماء ، يرتدى حلته الزرقاء القاتمة ذات الخطوط الطولية البيضاء والصدارة الزركش والقبعة الصلبة كقبعات القضاة المحالين إلى التقاعد ، وله شارب فارس متعاظم وشعر مائل للزرقة وكث ومموج على نحو رومانسى ويدا عازف هارب بخاتم أرمل فى بنصره اليسرى وعينان بهيجتان .

كان جلده المتعب هو وحده مايشى بحالته الصحية . ومع هذا ، كان وهو فى الثالثة والستين من عمره ، مازال يحتفظ بأناقة نبيلة . بيد أنه ، فى ذلك الصباح ، كان أبعد ما يكون عن أى شعور بالخيلاء . فقد خلت سنوات المجد والسلطة بلا رجعة وبقيت له سنوات الموت .

عاد إلى چينيڤ بعد حربين عالميتين بحثاً عن علاج ناجع لألم لم يستطع أطباء « المارتينيك » تشخيصه . كان قد حدد لذلك خمسة عشر يوماً وها هو ذا

قد أمضى ستة أسابيع فى فحوصات مضنية ونتائج غير قاطعة وبدون أن تبدو فى الأفق نهاية لكل ذلك . كانوا يبحثون عن الألم فى الكبد وفى الكلية وفى البنكرياس وفى البروستاتا ، أبعد الأماكن عن موطن الداء ، حتى جاء ذلك الخميس النحس الذى حدد فيه أقل من رآه من الأطباء شهرة موعداً له فى التاسعة صباحاً ، فى قسم الأعصاب .

بدا مكتبه كزنزانة راهب وكان الطبيب ضئيل الجثة وضعت يده اليمنى فى الجبس لكسر بإبهامه . عندما أطفأ الضوء ، ظهرت على الشاشة صورة أشعة لنخاع شوكى لم يتعرف عليه إلا بعد أن أشار إليه الطبيب بمؤشر ، تحت الخصر . عند اتصال فقرتين .

قال له : « يكمن ألمك هنا ! » .

لم يكن الأمر هيناً عليه . فقد بدت آلامه بعيدة الاحتمال وغير محددة ، فأحياناً تظهر فى ضلوعه اليمنى ، وأحياناً أسفل البطن ، وكثيراً ما كانت تفاجئه بوخز لحظى فى أصل الفخذ .

استمع إليه الطبيب دهِشا وقد تسمر المؤشر على الشاشة . قال : « لذا ضُللنا من قبل زمناً طويلا ولكننا الآن نعرف أنه هنا » . ثم وضع المؤشر على صدغه وأوضح :

– لكن كل الألم ، بدقة تامة ياسيادة الرئيس ، موجود هنا .

كان أسلوبه الإكلينكى مأساويا حتى أن حكمه النهائى عنَّ رحيماً : كان محتوماً أن تجرى للرئيس عملية خطرة لا مفر منها . فسأله هذا عن درجة الخطر . لفَّه الطبيب الشيخ فى ضوء محير . قال له :

– لا نستطيع أن نحددها بالضبط .

وأوضح أنه حتى وقت قريب كان خطر العمليات المميتة كبيراً وأخطار الشلل بكافة درجاته أيضاً ، لكن تقدم الطب في الحربين جعل تلك المخاوف تنتمى إلى الماضى .

ثم اختتم حديثه بقوله :

– اذهب مطمئناً ، ورتب أمورك ثم وافنا بذلك . ولكن لا تنس : من الخير أن يكون فى أقرب وقت ممكن .

لم يكن صباحاً طيباً « لهضم » مثل ذلك النبأ السيىء ، خاصة فى الخلاء. كان قد بكر فى الخروج من الفندق ، بلا معطف ، لأنه رأى شمساً ساطعة من الشرفة وذهب بخطواته المحسوبة من طريق « بوسولى » حيث يوجد المستشفى ، حتى ملجأ العشاق فى « المتنزه الإنجليزى » . وقضى هناك ساعة يفكر فى الموت ، عندما بدأ الخريف . هاجت البحيرة كمحيط مضطرب ، وبثّت رياح عاتية الذعر فى النوارس وجرفت آخر أوراق الشجر .

نهض الرئيس وانتزع أقحوانة من أحد الأحواض العامة ، بدلاً من شرائها من بائعة الزهور ، ووضعها فى عروة سترته . فاجأته بائعة الزهور بقولها :

– هذه الزهور ليست مشاعاً ياسيدى ، إنها زهور البلدية .

لم يلتفت إليها . ابتعد بخطو سريع قابضاً على عصاه من منتصفها يحركها دائرياً أحياناً بملاحة خليعة . عند جسر « مونبلان » كانوا يخلعون فى عجلة رايات الاتحاد التى أصابتها الرياح بالجنون ، وتوقفت النافورة الرشيقة المتوجة بالزّبَد قبل موعدها .

لم يتعرف الرئيس على مقهاه المعتاد على الرصيف ، لأنهم كانوا قد رفعوا عنه قماش مظلته أخضر اللون ، وأقفلت لتوها شرفات الصيف الزاهرة .

في صالون المقهى ، كان ضوء المصابيح كضوء النهار وكان رباعي الوتريات يعزف موسيقى ناعمة لموتسارت . التقط الرئيس من المنضدة جريدة من الكومة المخصصة للعملاء ، وعلق قبعته وعصاه في المشجب ولبس نظارته الطبية الذهبية وجلس للقراءة على مائدة قصية . حينئذ فقط أدرك أن الخريف قد حل .

بدأ القراءة بصفحة الأخبار الدولية ، حيث كان يعثر على أخبار من أمريكا على أحايين متباعدة ، وتابع قراءة صفحات الجريدة في ترتيب معكوس حتى أحضرت له فتاة المقهى زجاجة المياه المعدنية المعتادة ، ماركة « إيفيون » . كان قد أقلع عن تناول القهوة منذ ثلاثين عاماً بأمر من أطبائه ، ولكنه قال : « إذا تأكدت يوماً من أنني سأموت ، سأعود إلى تناول القهوة» . وربما واتته تلك الساعة الآن .

طلب بفرنسية سليمة :

– أحضري لي قهوة أيضاً .

وأضاف دون أن يلتفت إلى ما في مقولته من مفارقة :

– قهوة إيطالية تحيي ميتاً !

احتساها بلا سكر ، على حسوات بطيئة ، ثم قلب الفنجان حتى تتمكن رواسب القهوة ، بعد أن مرت أعوام طويلة ، من كتابة مصيره . للحظة ، خلصه مذاق القهوة المستعاد من أفكاره القاتمة وبعد لحظة أخرى ، كجزء من نفس السحر ، أحس بأن هناك من يرقبه . حينئذ قلب الصفحة بإيماءة عارضة ونظر

من فوق نظارته فرأى الرجل الشاحب وغير الحليق ، ذا القبعة الرياضية وسترة جلدية رفع ياقتها ، الذى أشاح عنه بوجهه حتى لا يصطدم بنظرته .

كان وجهه مألوفاً . التقيا عدة مرات فى بهو المستشفى ، وعاد فرآه يوماً على متن دراجته النارية ، بالقرب من « بروميناد دولاك » بينما كان هو يشاهد البجع ، ولكنه لم يحس بأن الرجل يعرفه ، ومع ذلك ، لم يستبعد أن يكون إحدى فانتازيات المطاردة فى المنفى .

انتهى من تصفح الجريدة بلا عجلة ، سابحاً فى أنغام تشيللو « برامز » المترفة ، حتى صار الألم أشد من خدر الموسيقى . عندئذٍ ، نظر فى ساعته الذهبية المعلقة فى سلسلة تتدلى من جيب صدارته وتناول قرصى مهدىء ساعة الظهيرة مع آخر جرعة من ماء « إيڤيون » .

قبل أن يخلع نظارته ، قرأ مصيره فى ثفل القهوة ، وانتابته قشعريرة جليدية : كانت حيرته تكمن هناك . وأخيراً ، دفع الحساب وبقشيشاً بخيلاً وأخذ عصاه وقبعته من المشجب وخرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذى كان يراقبه . ابتعد بخطوه الاحتفالى ، محاذياً أحواض الزهور التى خربتها الرياح وقد أحس بتخففه من وطأة ذلك السحر . لكنه سرعان ما أحس بخطوات تتبع خطواته ، فتوقف عند تخطيه ناصية الشارع واستدار نصف استدارة . اضطر الرجل الذى كان يتبعه إلى التوقف فجأة حتى لا يصطدم به ثم نظر إليه ملتاعاً على مسافة شبرين من عينيه . همهم :

– سيدى الرئيس !

قال الرئيس دون أن يفقد ابتسامته أو نبرة صوته الساحرة :

– قل لمن يدفعون لك ألا يحلموا ، فصحتى على خير ما يرام .

قال الرجل وهو يرزح تحت وطأة المهابة التى دهمته :

- لا أحد يعلم هذا خير منى ، فأنا أعمل بالمستشفى .

كان نطقه ولهجته بل وحياؤه تنم جميعها عن كاريبى قُح .

قال له الرئيس :

- لا تقل لى إنك طبيب !

- ليتنى كنت طبيباً !

أضاف الرئيس مقتنعاً بخطئه :

- آسف . إنه لعمل شاق !

أجابه الرجل :

- ليس أشق من عملك ياسيدى !

نظر إليه بلا تحفظ واعتمد على عصاه بيديه وسأله فى اهتمام حقيقى :

- من أين أنت ؟

- من الكاريبى .

- لقد فطنت إلى ذلك . ولكن من أى بلد ؟

- من نفس بلدك ياسيدى .

قال هذا ومد له يده :

- اسمى هوميروس رى . (هوميروس ملك) .

قاطعه الرئيس فى دهشة ودون أن يترك يده :

- عجباً ! ما أجمل الاسم !

زايل هوميروس توتره ، قال :

– بل أكثر من هــــذا : هــوميروس ري دى لا كاســا . (هوميروس ملك الــبيت) .

فاجأتهما طعنة شتوية وهما أعزلان بالشارع . اقشعرّ بدن الرئيس حتى النخاع وأدرك أنه لن يستطيع السير ، دون معطفه ، المربعين المتبقيين له حتى مطعم الفقراء الذى اعتاد الأكل فيه . سأل هوميروس :

– أتناولت غداءك ؟

– لم أعتد تناول وجبة الغداء ، بل آكل مرة واحدة ببيتى ليلاً .

قال الرئيس مظهراً كل مالديه من سحر :

– اجعل اليوم استثناء . أدعوك للغداء .

تأبط ذراعه وقاده حتى المطعم المقابل الذى كتب على مظلته من القماش : " Le boeuf couronn`e " . كان مطعماً ضيقاً ودافئاً وليس به مكان شاغر . واصل هوميروس رى ، المتحير لأن أحداً لم يتعرف على الرئيس ، سيره حتى نهاية الصالة ليطلب عوناً .

سأله صاحب المطعم :

– أمازال رئيساً ؟

أجابه هوميروس :

– كلا . إنه رئيس مخلوع !

ندت عن صاحب المطعم ابتسامة موافقة قال :

– لهؤلاء لدى دائماً مائدة خاصة .

وقادهما إلى ركن منعزل فى نهاية الصالة حيث يمكنهما الحديث فى دعة ، فشكره الرئيس قائلاً :

– لا يقدر الناس مقام المَنْفيّ مثلما تقدره .

كانت أشهر وجبات المطعم ضلع ثور على الفحم . نظر الرئيس وضيفه حولهما ورأيا على الموائد الأخرى قطع اللحم الكبيرة والمشوية عليها طبقة رقيقة من الشحم . تمتم الرئيس : « لحم لذيذ ولكنه محرم علي » وحدج هوميروس بنظرة مداعبة وقال له بلهجة مغايرة :

– لقد حرم علي كل شيء ، في الحقيقة .

– وحرمت عليك القهوة أيضاً ، ومع هذا تتناولها !

– أفطنت إلى ذلك ؟ لكن ذلك كان استثناء في يوم ليس ككل الأيام .

لم تكن القهوة الاستثناء الوحيد فى ذلك اليوم . فقد طلب أيضاً ضلع ثور على الفحم وسلطة خضراوات طازجة لم يضف إليها سوى زيت الزيتون بوفرة . طلب ضيفه ذات الشيء ونصف دورق من النبيذ الأحمر أيضاً .

بينما كانا ينتظران اللحم ، أخرج هوميروس من جيب سترته حافظة نقود بلا نقود بها أوراق كثيرة ، وأعطى الرئيس صورة حائلة الألوان ، تعرف فيها على نفسه مرتدياً قميصاً ، أقل وزناً ، وبشعر وشارب حالكي السواد ، وسط كوكبة من الشباب تدافعوا ليحتلوا مكاناً بارزاً في الصورة . كفته نظرة ليتذكر المكان ، تذكر شعارات حملة انتخابية كريهة وتذكر تاريخها التعس . همهم : « يالله ! لقد قلت دائماً إن الإنسان ليشيخ فى الصور أشد مما هو فى الحقيقة»، وأعاد الصورة بإيماءة قاطعة ، قال :

– أتذكرها جيداً . كان ذلك منذ زمن بعيد ، فى حلبة مصـــارعة الديكة ،

بـ « سان كريستوبال دى لاس كاسس » .

– إنها قريتى .

قالها هوميروس وأشار إلى نفسه فى الصورة مضيفاً :

– وهذا أنا !

تعرف الرئيس على صورته ، قال :

– كنت طفلا !

– تقريباً . كنت بصحبتك طوال حملة الجنوب ، كرئيس للألوية الجامعية .

استبق الرئيس العتاب قائلاً :

– وأنا بالطبع لم أكن ألتفت إليك .

– على العكس . لكننا كنا كثيرين ، لذا من المحال أن تتذكر .

– وبعد ذلك ؟

– من يعلم ذلك خيرا من سيدى ؟ بعد الانقلاب العسكرى ،ما يعتبر معجزة هو أن يوجد كلانا هنا ، على أهبة الاستعداد لأكل نصف ثور . لم يحظ كثيرون بما نلناه من حسن طالع !

فى تلك اللحظة حملت إليهما الأطباق . وضع الرئيس منديل المائدة فى رقبته كميدعة الأطفال ، وانتبه إلى حيرة ضيفه الصامتة ، قال : « إن لم أفعل ، أفقد ربطة عنق فى كل وجبة » . قبل أن يقربا اللحم ، تذوقه هو بإيماءة رضا ثم عاد إلى الموضوع . قال :

– مالا أفهمه هو لمَ لم تقترب منى بدلاً من تعقبى ككلب مطاردة ؟

عندئذ قص عليه هوميروس أنه تعرف عليه منذ رآه يدخل المستشفى من

باب الحالات الخاصة . كان ذلك في أوج فصل الصيف ، وكان الرئيس يرتدى حلة كاملة من الكتان الأبيض ، كعادة أهل جزر الأنتيل ، وحذاء من اللونين الأبيض والأسود ، ويضع أقحوانة في عروة سترته وشعره منتفشاً بفعل الريح . وتوصل هوميروس إلى أنه كان وحيداً في چينيڤ ، بلا عون من أحد ، وأنه يحفظ عن ظهر قلب المدينة التى أتم بها دراسة الحقوق . وكانت إدارة المستشفى، بناء على طلبه ، قد اتخذت الاحتياطات الداخلية لتأمين سرية علاجه . في تلك الليلة ذاتها ، اتفق هوميروس وزوجته على الاتصال به . ومع هذا ظل يتتبعه على مدى خمسة أسابيع محاولاً إيجاد فرصة سانحة ، وربما ما كان ليجرؤ على تحيته لو أنه لم يواجهه . قال له الرئيس :

– يسعدني أنك فعلت ذلك ، وإن كنت في الحقيقة لا أضيق أبداً بوحدتي.

– ليس هذا من العدل !

سأله الرئيس بصدق :

– لمَ ؟ إن أكبر نصر أحرزته في حياتي هو أنهم نسوني .

قال هوميروس دون أن يدارى تأثره :

– نحن نتذكرك أكثر مما تتخيل ياسيدى . لشد ما سعدت لرؤيتك على هذا النحو ، صحيحاً وشاباً !

قال هو بلا مأساوية :

– ومع هذا ، كل شيء يشير إلى أنني سأموت قريباً .

أجابه هوميروس :

– إن احتمالات النجاح عالية جداً .

قفز الرئيس فى مكانه من حدة المفاجأة ، ولكنه لم يفقد ملاحته . صاح :

– يا إلهى ! أ ألغى سرالمهنة فى سويسرا الجميلة ؟

– ليست هناك أسرار تخفى على سائق إسعاف فى أى مستشفى فى العالم .

– حسن . ما أعلمه الآن علمته منذ ساعتين فقط وعلى لسان الطبيب الوحيد الذى يقف على حقيقة حالتى .

قال هوميروس :

– على أية حال ، لن ترحل سدى . سيأتى شخص ويعطيك المكانة التى تستحقها كمثال للكرامة .

تصنع الرئيس دهشة كوميدية . قال :

– أشكرك لتنبيهى !

كان يأكل مثلما يفعل كل شىء : فى أناة وبأناقة شديدة ، بينما ينظر إلى عينى هوميروس مباشرة بحيث خيل إلى هذا أنه يرى ما يفكر فيه . فى نهاية محادثة مطولة من الذكريات والحنين إلى الماضى ، ابتسم ابتسامة خبيثة ، قال :

– كنت قد وطدت العزم على عدم الاهتمام بأمر جثتى ، لكننى أرى الآن من واجبى أن أتخذ بعض الاحتياطات ، كما يحدث فى الروايات البوليسية ، حتى لا يعثر عليها أحد .

قال هوميروس بدوره ، مداعبا :

– ليس تحت ذلك طائل ، ففى المستشفى ليست هناك أسرار تدوم أكثر من ساعة .

عندما انتهيا من القهوة ، قرأ الرئيس قاع الفنجان وعاودته القشعريرة : كانت الرسالة ذاتها . ومع هذا ، لم يتبدل تعبير وجهه . دفع الحساب نقداً ولكنه ، قبل أن يفعل ، راجع جمع الحساب عدة مرات وعدَّ النقود عدة مرات بعناية زائدة ثم ترك بقشيشاً لم ينل من النادل سوى همهمة .

عند توديعه لهوميروس ، اختتم حديثه :

– تشرفت بمعرفتك . لم أحدد بعد تاريخاً للعملية ، بل إنني لست أدرى بعد إن كنت سأجريها أم لا . لكن إذا سارت جميع الأمور على ما يرام ، سنلتقى مرة أخرى .

قال هوميروس :

– ولمَ لا نلتقى قبل ذلك ؟ إن لَتْرا ، زوجتى ، طاهية أغنياء . لا أحد يعد الأرز بالجمبرى خير منها ، ويسعدنا أن نستضيفك فى بيتنا فى أية ليلة .

– لقد حرم على الجمبرى ولكننى سآكله ممتناً . قل لى متى ؟

– يوم الخميس هو يوم عطلتى .

– عظيم . يوم الخميس فى السابعة مساء سأكون فى بيتك بكل سرور .

– سأمر ببيتك : « أوتليرى دام » ، ١٤ شارع لاندسترى ، خلف المحطة . هل العنوان صحيح ؟

نهض الرئيس أشد سحراً من أى وقت مضى :

– صحيح ! الظاهر أنك تعرف حتى مقاس حذائى .

أجابه هوميروس مبتهجاً:

– أجل يا سيدى : واحد وأربعون .

ما لم يقصصه هوميروس رى على الرئيس ، وإن ظل يحكيه لكل من أراد أن يسمعه على مدى سنوات ، هو أن هدفه في بداية الأمر لم يكن بهذه البراءة . كانت له ، كآخرين من سائقي الإسعاف ، اتفاقات مع مؤسسات جنائزية وشركات تأمين لبيع خدماتها في المستشفى ،خاصة للمرضى الأجانب محدودي الموارد . كان المكسب ضئيلاً ، إلى جانب أنه كان يقتسمه مع موظفين آخرين كانوا يتناقلون التقارير السرية عن الحالات الخطرة . بيد أنه كان عزاء طيباً لمنفيٍّ بلا مستقبل يعيش بالكاد مع زوجته وولديه على مرتب مُزرٍ .

كانت لثرا ديفيز ، زوجته ، أكثر واقعية . كانت خلاسية رقيقة من سان خوان ، بويرتوريكو ، صغيرة ومكتنزة ، وبلون الكراميل المترسب ، ولها عينا كلبة برية تتناسبان ومزاجها أشد ما تكون المناسبة . كانا قد التقيا في قسم إغاثة الفقراء بالمستشفى الذى كانت تعمل به كمساعدة في أي شيء بعد أن استغنى عنها أحد أعيان بلادها جلبها معه كمربية لأطفاله ثم تركها بلا مأوى في چينيف. تزوجا زواجاً كاثوليكياً برغم كونها أميرة آروبا (ARUBA) ، وقطنا صالة وحجرتي نوم بالطابق الثامن بلا مصعد في بناية للمهاجرين الأفارقة ، وأنجبا طفلة هي الآن في التاسعة من عمرها ، بربارا ، وطفلاً في السابعة ، لثرو ، عليهما أعراض تخلف عقلي طفيفة .

كانت لثرا ديفيز امرأة ذكية ، حادة الطبع ورقيقة الحاشية معاً ، تعتبر نفسها خير من يمثل في نقاء مواليد برج الثور ؛ ولها في تنبؤاتها الفلكية ثقة عمياء ، غير أنها لم تتمكن قط من تحقيق حلمها : العمل كفلكية عرافة لأصحاب الملايين . ومع هذا ، كانت تحمل إلى بيتها بعض الموارد العارضة والهامة أحياناً، بإعداد مآدب عشاء لسيدات موسرات كن يتفاخرون أمام ضيوفهن بأنهن اللائى

أعددن الوجبات الكاريبية المثيرة . وكان هوميروس بدوره حيياً شديد الحياء ولم يكن يتجاوز حدود عمله المتواضع ، لكن لثرا لم تكن تتخيل الحياة بدونه لسلامة طويته وحجم « سلاحه » .

سارت أمورهما على ما يرام ، لكن السنين كانت تتوالى أكثر ضراوة دائماً وكان ولداهما يكبران . في الأيام التى حضر فيها الرئيس إلى چينيڤ ، كانا قد أخذا ينفقان مما ادخراه على مدى خمس سنوات ، وما أن اكتشفه هوميروس من بين المرضى السريين بالمستشفى حتى طفقا يسرفان فى أحلامهما .

لم تكن لديهما فكرة محددة عما كانا سيطلبانه منه ، ولا بأى وجه حق . فى بادىء الأمر ، فكرا فى بيعه جنازة كاملة ، بما فيها تحنيط جثته وإعادتها إلى وطنها . شيئاً فشيئاً أخذا يلتفتان إلى أن وفاته لم تكن وشيكة كما توقعا . وفى اليوم الذى دعاه فيه هوميروس إلى الغداء كانا لا يزالان نهباً للشكوك .

فى حقيقة الأمر ، لم يكن هوميروس قائداً للألوية الجامعية ولا أى شىء من هذا القبيل ، وكانت المرة الوحيدة التى شارك فيها فى الحملة الانتخابية عندما التقطت تلك الصورةالتى عثر عليها بمعجزة تائهة فى خوان الملابس . لكن حميته كانت حقيقية . وكان حقيقياً أيضاً أنه اضطر إلى الفرار من بلاده لاشتراكه فى المقاومة الشعبية ضد الانقلاب العسكرى ، على أن السبب الأوحد لبقائه فى چينيڤ كل تلك الفترة هو كساده الروحى . لذا فإن أية كذبة من هنا أو هناك لم تكن لتقف حائلاً دون استمالة الرئيس إلى جانبه .

وكانت أول مفاجأة لكليهما أن المنفيَّ العظيم يعيش فى فندق من الدرجة الرابعة فى حى « لا جروت » البائس بين مهاجرين آسيويين و « فراشات ليل » ، ولا يأكل إلا فى مطاعم فقيرة ، فى الوقت الذى كانت چينيڤ تعج فيه بقصور عظيمة لسياسيين منكوبين .

كان هوميروس قد رآه يكرر طقوس ذلك النهار يوماً بعد يوم . كان يتابعه بنظره ، وأحياناً على مسافة أقل من مناسبة ، في تجولاته الليلية بين الأسوار الكئيبة والجريس الأصفر المعلق في الأحياء القديمة . رآه خلال ساعات شارداً أمام تمثال كالڤين . صعد وراءه خطوة بخطوة السلالم الحجرية ، يخنقه عبق الياسمين الحار ، لتأمل غروب الصيف من قمة « بورج لوفور » . في إحدى الليالي ، رآه تحت أول رذاذ ، بلا معطف أو مظلة ، يقف في الطابور مع الطلبة لحضور حفل « رو بنستاين » ، وقال بعدها لزوجته : « لست أدرى كيف لم يصب بالتهاب رئوى ؟ » في يوم السبت السابق ، عندما تبدل الطقس ، رآه يشترى معطفاً للخريف بياقة من البيسون المقلد ، وليس في المحال المتألقة بشارع «رون» التي يرتادها الأمراء الهاربون بل في « سوق البراغيث » .

صاحت لثرا عندما سمعت ما قصه عليها هوميروس :

– أليس ثمة إذن ما نفعله ؟ إنه لبخيل قذر لن يتورع عن استجداء أهل الخير لدفنه في مقابر الفقراء . لن ننال منه شيئاً .

– ربما كان فقيراً حقاً بعد أعوام طويلة بلا وظيفة !

– صه أيها الزنجي ، لك أن تكون من مواليد برج الحوت لا أن تكون أحمق . يعلم كل الناس أنه استولى على ذهب الحكومة وأنه أغنى من نُفى في المارتينيك.

كان هوميروس الذي يكبرها بعشر سنوات قد نشأ مفتوناً بأن الرئيس درس في چينيڤ وكان عامل بناء ، بينما نشأت لثرا على فضائحه في الصحف المناهضة ، والتي بالغ فيها أهل منزلها المعادين للرئيس ، حيث عملت مربية للأطفال منذ صغرها . أي أنه في الليلة التي عاد فيها هوميروس يكاد يختنق من

السعادة لأنه تناول غداءه مع الرئيس ، لم تقتنع هي بأنه دعاه إلى مطعم راقٍ . أغضبها ألا يطلب هوميروس شيئاً من الأشياء الكثيرة التي حلما بها ، من منح دراسية لطفليهما إلى عمل أفضل بالمستشفى . وتأكدت شكوكها إذ قرر أن يلقوا بجثته للعقبان بدلاً من بذل فرنكاته في جنازة كريمة وعَوْدٍ مجيد إلى وطنه .

وطفح الكيل بالنبأ الذي احتفظ به هوميروس إلى النهاية ، وهو أنه دعا الرئيس لتناول أرز بالجمبري مساء الخميس .

صرخت لثرا :

– هذا ما كان ينقصنا ، أن يموت هنا مسموماً بالجمبري المعلب ، وأن نضطر إلى دفنه بما ادخرناه لطفلينا .

كان وفاؤها لزوجها هو ما حدد في نهاية الأمر المسلك الذي ستسلكه . اضطرت إلى استعارة ثلاثة أطقم فضية للمائدة ، من إحدى جاراتها ؛ وصينية من الزجاج للسلطة وماكينة قهوة كهربائية ، من جارة أخرى ؛ ومن جارة ثالثة ، مفرشاً مشغولاً وفناجين وصينية للقهوة . استبدلت الستائر القديمة بأخرى جديدة لا تستخدم إلا في الأعياد ، وأزالت الأغطية من فوق الأثاث . قضت يوماً بأكمله تغسل الأرضيات وتزيل الغبار وتغير الأشياء من مواضعها حتى حصلت في النهاية على عكس ما يناسبهما : أن يعجب الضيف بوقار الفقر .

ليلة الخميس ، بعد أن التقط أنفاسه لصعود ثمانية طوابق ، ظهر الرئيس بالباب يرتدي معطفه القديم الجديد وقبعته الصفراء المنتمية إلى زمن آخر ، ومعه وردة وحيدة للثرا . باغتها حسنه وأناقة الأمراء في سلوكه ، لكنها ، فيما وراء ذلك ، رأته كما كانت تتخيله : زائفاً وجارحاً .

بدا لها وقحاً لأنها – أثناء إعداد الطعام – فتحت النوافذ لتجنب أن تملأ

رائحة الجمبرى المنزل ، فما كان منه ، عند دخوله ، سوى أن استنشق الهواء ملء رئتيه فى انتشاء لحظى صائحاً وقد أغمض عينيه وفتح ذراعيه : « آه ، عبق بحرنا ! » . عنَّ لها أشد ما يكون بخلاً إذ أحضر لها وردة واحدة سرقها بلا شك من حديقة عامة . لاح لها صفيقاً لتعبير الازدراء الذى نظر به إلى قصاصات الصحف التى تفننت بأمجاد رئاسته وأعلام ورايات الحملة الانتخابية التى ثبتها هوميروس بسلامة طوية فى حوائط الصالة . رأته متحجر القلب إذ لم يحى بربارا أولثرو اللذين أعدا له هدية من صنعهما ، ولأنه أثناء العشاء أشار إلى شيئين لا يحتملهما : الكلاب والأطفال .

كرهته . ومع هذا ، تغلب كرم ضيافتها الكاريبى على مشاعرها . كانت قد ارتدت ثوباً إفريقياً اعتادت لبسه فى ليالى الأعياد ، وعقوداً وسوارات مقلدة ، ولم تومىء طوال العشاء إيماءة واحدة ، ولم تتفوه بكلمة واحدة زائدة . ولم يكن ثمة ما يؤخذ عليها ، بل كانت رائعة .

والحق أن الأرز بالجمبرى لم يكن من فضائل مطبخها ، لكنها أعدته بخير أمانيها ، وكان طيباً . أصاب منه الرئيس طبقين دون أن يدخر مديحاً ، وشغف برقائق الموز المقلية وسلطة الأفوكاتو وإن لم يشاطرهما الحنين إلى الماضى . اكتفت لثرا بالإنصات حتى موعد الحلوى ، حين تورط هوميروس بلا داع فى قضية وجود الله .

قال الرئيس :

– نعم ، أنا أعتقد فى وجوده ، لكنه مشغول عن البشر بأمور أعظم .

– أعتقد فقط فى وجود النجوم – قالت ذلك وتفحصت رد فعل الرئيس ثم سألته – فى أى يوم ولدت ؟

– فى الحادى عشر من مارس .

قالت لثرا فى لهجة المنتصر :

– أمر بديهى !

ثم تساءلت فى نبرة معتدلة :

– أليس من الإفراط أن يكون ثم اثنان من مواليد برج الحوت على مائدة واحدة؟

واصل الرجلان حديثهما عن الإيمان بينما ذهبت إلى المطبخ لتعد القهوة . كانت قد رفعت أطباق العشاء وتتمنى من صميم القلب أن تنتهى الليلة على خير . عند عودتها إلى الصالة تحمل القهوة ، فاجأتها جملة عابرة قالها الرئيس وأذهلتها :

– لا شك فى ذلك يا صديقى العزيز ، إن أسوأ ما أصاب بلدنا التعس أن كنت رئيساً له !

رأى هوميروس لثرا بالباب تحمل الصينية وإبريق القهوة المعار واعتقد أنها سوف يغشى عليها ، والتفت إليها الرئيس أيضاً ثم قال لها بلهجة لطيفة : « لا تنظرى إلىّ هكذا ياسيدتى فأنا أتحدث من القلب » ، ثم نظر إلى هوميروس واختتم قوله :

– أحمد الله أننى أدفع ثمن حماقتى غالياً !

قدمت لثرا القهوة وأطفأت مصباح المائدة الذى كان يعطل الحديث ، وغاصت الصالة فى ضوء خافت وحميمى ولأول مرة خصت باهتمامها الضيف الذى لم تستطع ملاحته مداراة بؤسه . واشتد فضول لثرا عندما انتهى من القهوة وقلب الفنجان حتى يستقر ثفلها .

بعد العشاء ، قص الرئيس عليهما أنه اختار جزيرة « المارتينيك » لمنفاه لصداقته بالشاعر إيميه سيزير ، الذى كان فى ذلك الوقت قد نشر مؤلفه :

" Cahier d'un retour au pays natal " وأعانه على بدء حياة جديدة واشتريا بما تبقى لهما من إرث زوجته بيتاً من الخشب النبيل على سفح « فور دو فرانس » له نوافذ من السلك وشرفة على البحر اكتظت بالزهور البرية استمتعا بالنوم فيها على جلبة صرار الليل ونسيم العسل والروم الصادر من معصرة القصب .

مكث هناك مع زوجته التى كانت تكبره بأربعة عشر عاماً ، والمريضة منذ ولادتها ، يلوذ من المصير بإدمان إعادة قراءة الكتّاب اللاتينيين الكلاسيك باللاتينية ، مقتنعاً بأن ذلك كان الفصل الأخير فى حياته . لعدة سنوات ، اضطر إلى مقاومة كافة صنوف الإغراءات التى كان مؤيدوه المهزومون يقترحونها عليه ، قال :

– لكننى لم أعاود فتح خطاب البتة منذ أن اكتشفت أن أشدها إلحاحاً ليست بذات الإلحاح بعد فوات أسبوع وأنه بعد شهرين لا يتذكرها حتى من كتبها .

نظر إلى لثرا فى الضوء الخافت عندما أشعلت سيجارة ثم انتزعها من يدها بإيماءة شرهة من إصبعيه ، فأخذت لثرا ، المصعوقة ، علبة السجائر والثقاب لتشعل أخرى لكنه أعاد إليها السيجارة مشتعلة . قال :

– أقلعت عن التدخين منذ أعوام طويلة ولكنه لم يقلع عنى تماماً . أحياناً يتمكن منى كما حدث الآن .

هزه السعال مرتين أخريين وعاوده الألم . تحرى الرئيس الوقت فى ساعة

جيبه ثم تناول قرصى مهدىء الليل . وقرأ قاع الفنجان : لم يكن قد تغير فى شيء لكن بدنه لم يقشعر فى هذه المرة قال :

– بعض أتباعى القدامى أصبحوا رؤساء بعدى .

قال هوميروس :

– ساياجو !

– ساياجو وآخرون . وكلهم مثلى : نالوا شرفاً لا يستحقونه ووظيفة لم يتقنوا ممارستها . يسعى بعضهم وراء السلطة فقط ، بيد أن الغالبية تسعى وراء شىء أقل : الوظيفة .

غضبت لثرا ، قالت :

– أتدرى ماذا يقولون عنك ؟

تدخل هوميروس متخوفاً :

– محض افتراء !

قال الرئيس فى وداعة ملائكية :

– قد يكون أو لا يكون افتراء . فى حالة أى رئيس ، أشد العار هو أن يكون الأمرين معاً : الحقيقة والافتراء .

عاش فى المارتينيك كل أيام منفاه ، بمعزل عن الخارج اللهم إلا الأخبار النادرة فى الصحيفة الرسمية ، يحيا على دروس الإسبانية واللاتينية بمدرسة حكومية وعلى الترجمات التى كان إيميه سيزير يكلفه بها فى بعض الأحيان . فى حر أغسطس القائظ ، كان يستلقى فى شبكة النوم حتى منتصف النهار ، يقرأ على وشيش مروحة سقف حجرة النوم . وكانت زوجته تربى الطيور الطليقة

وتعتنى بها حتى فى أشد ساعات النهار قيظاً محتمية بقبعة من الخوص ذات حافة عريضة مزينة بفواكه صناعية وبزهور من الأورجانزا . لكنهما ، عند انخفاض درجة الحرارة ، كانا يستطيبان الجلوس فى الشرفة : هو يثبت ناظريه فى البحر حتى يغوص فى الحلكة ، وهى فى مقعدها الهزاز من البامبو بقبعتها الممزقة وخواتمها المقلدة تتأمل مرور السفن القادمة من بقاع الأرض . كانت تقول « هذه فى طريقها إلى بويرتو ريكو ، وهذه لا تستطيع السير تقريباً بما تحمله من موز بويرتو ريكو » . لأنها لم تكن تتخيل أن يمر مركب لا يكون من بلدها .

أما هو فقد كان يتصنع أنه لم يسمعها . بيد أنها فى نهاية الأمر استطاعت أن تنسى خيرا منه ، لأنها فقدت الذاكرة . كانا يمكثان على نفس الوتيرة حتى تنقضى ساعات الشفق الصاخبة ويضطران إلى اللجوء بالمنزل هرباً من الطيور .

فى أحد شهور أغسطس تلك ، وبينما كان يقرأ الصحيفة فى الشرفة قفز الرئيس من شدة المفاجأة ، صاح :

– آه ، عجباً ! لقد مت فى إستوريل !

ذعرت زوجته للنبأ وكانت تحلق فى السبات . كانت ستة سطور فى الصفحة الخامسة بالجريدة التى كانت تطبع قريباً من بيتهما وتنشر فيها ترجماته المتفرقة ، والتى كان مديرها يمر ببيته ليزوره من حين لآخر . كانت تقول الآن إنه توفى فى إستوريل ، لشبونة ، منتجع وعرين الارستقراطية القديمة فى أوربا ، المكان الذى لم يذهب إليه من قبل وربما المكان الوحيد فى العالم الذى لا يرغب الموت فيه .

ماتت زوجته بالفعل بعد ذلك بسنة . قضت عليها آخر ذكرى بقيت لها حتى ذلك الحين : ولدها الوحيد الذى اشترك فى الإطاحة بأبيه ثم قتل بعد ذلك على أيدى أعوانه فى المؤامرة .

زفر الرئيس زفرة قائلاً : « هذه شيمتنا وليس لنا خلاص : نحن قارة خلقت من نفايات العالم أجمع بلا لحظة حب : أبناء الاختطاف والاغتصاب والتعذيب والخداع ، قارة الأعداء ضد الأعداء . » واجه عينى لثرا الإفريقيتين اللتين كانتا تحدجانه بلا رحمة ، فحاول خطب ودها ببلاغة مدرس عجوز ، قال :

تعنى كلمة « هجين » مزج الدموع بالدم المهراق . ماذا يمكن أن ينتظر من مثل هذا الشراب الحنظل ؟

سمّرته لثرا فى مكانه بصمتها المميت . ولكنها ، قبيل منتصف الليل ، تمكنت من مداراة مشاعرها وودعته بقبلة رسمية . أبى الرئيس أن يصحبه هوميروس حتى الفندق ، لكنه لم يستطع منعه من مساعدته فى إيقاف سيارة أجرة . عند عودته إلى منزله ، ألفى هوميروس زوجته تكاد تجن من الغضب . قالت :

– هذا أحق رئيس بالسقوط فى العالم ! هذا العاهر ، الرهيب !

رغم الجهد الجهيد الذى بذله هوميروس لتهدئتها ، لم يغمض لهما جفن فى تلك الليلة الحالكة السواد . لم تنكر لثرا أنه أبهى من رأت من الرجال ، وأن له قدرة مدمرة على الإغراء ورجولة ثور . قالت : « على حاله هذه ، هرماً وحقيراً ، لابد أنه لا يزال نمراً فى الفراش » . لكنها كانت ترى أنه يهدر ما حباه الله من قوى فى الاحتيال . لم تكن لتحتمل زهوه بأنه كان أسوأ رئيس لبلاده ولا خيلاءه الزاهدة ، وهى على يقين من أنه صاحب نصف مزارع السكر فى المارتينيك ؛ ولا ازدراءه المنافق للسلطة بعد أن بدا جلياً أنه لن يتردد فى

التضحية بكل ما يملك لقاء العودة إلى الرئاسة لدقيقة واحدة ليجعل أعداءه يسفون التراب . أضافت :

– وكل هذا من أجل أن يأسرنا فحسب .

– وماذا يعود عليه من وراء ذلك ؟

– لا شيء . كل ما في الأمر أن الغرور إدمان لا يرويه شيء .

اشتد حنقها إلى حد أن هوميروس لم يطقها في الفراش وذهب متدثراً في بطانية لينهي تلك الليلة على أريكة الصالة . نهضت لثرا أيضاً عند الفجر ، عارية تماماً كما اعتادت النوم أو البقاء في المنزل ، تتحدث إلى نفسها في مناجاة على وتر واحد . وفي لحظة واحدة محت من ذاكرة البشرية كافة آثار ذلك العشاء المقيت . ردت مع بزوغ الفجر كل ما استعارته من أشياء وأبدلت الستائر الجديدة بالقديمة وأعادت الأثاث إلى موضعه المعتاد حتى عاد المنزل فأصبح فقيراً ومحترماً كما كان قبل الليلة السابقة . وأخيراً ، نزعت قصاصات الصحف والصور وأعلام ورايات الحملة الانتخابية المزرية وألقت بها جميعاً في القمامة تصحبها صيحة أخيرة :

– إلى الجحيم !

بعد مضي الأسبوع على ذلك العشاء ، ألفى هوميروس الرئيس ينتظره عند باب المستشفى ويرجوه أن يذهب معه إلى الفندق . صعدا الطوابق الثلاثة المرتفعة حتى بلغا غرفة على السطح بها فتحة واحدة في السقف تطل على سماء رمادية ويشقها حبل علقت عليه ملابس لتجف . كان ثمة أيضاً سرير كبير يحتل نصف المساحة وكرسي متواضع وإبريق و« بيديه » نقال وخوان ملابس فقير بمرآة مضببة .

لاحظ الرئيس تعبير وجه هوميروس ، فقال له كأنه يعتذر :

- إنه نفس الجحر الذى عشت فيه أيام الدراسة . قمت بحجزه من « فور دو فرانس » .

وأخرج من كيس من المخمل ما بقى له من موارد وبسطه على الفراش . كانت عدة سوارات ذهبية بزخارف عديدة من الأحجار الكريمة ، وعقدا من اللؤلؤ بثلاث دورات وآخرين من الذهب والأحجار الكريمة ، وثلاث سلاسل ذهبية بأيقونات ، وقرطين ذهبيين مرصعين بالزمرد ، وآخر بالماس ، وآخر باليواقيت ، وصندوقين صغيرين لحفظ الأيقونات ، وعلبة مجوهرات ، وأحد عشر خاتماً بمختلف أنواع الحجارة الكريمة ، وتاجاً من الماس يليق بملكة . ثم أخرج من علبة أخرى ثلاثة أزواج من أزرار القميص الفضية وزوجين آخرين من الذهب ، ولكل منها دبوس ربطة العنق الخاص به ، وساعة جيب مطلية بالذهب الأبيض . وأخيراً ، أخرج من علبة أحذية أوسمته الستة : اثنين ذهبيين وواحدا من الفضة والبقية من الصفيح .

قال :

- هذا كل ما تبقى لى .

لم يكن لديه مخرج آخر سوى بيعه كله لإتمام مصروفات العلاج ، وود لو أن هوميروس قدم له هذا الصنيع فى سرية تامة . مع هذا ، لم ير هوميروس أن بوسعه إجابته إلى طلبه ما لم تكن لديه فواتير شراء قانونية .

أوضح له الرئيس أنها كانت تخص زوجته ، ورثتها عن جدة لها من أصل ملكى والتى كانت بدورها قد ورثت مجموعة أسهم فى مناجم ذهب فى كولومبيا . وكانت الساعة والأزرار والدبابيس ملكه . وبالطبع لم تكن الأوسمة لأحد قبله . قال :

- لا أعتقد أن أحداً لديه فواتير لأشياء مثل هذه .

كان هوميروس لا يلين . فكر الرئيس :

- في هذه الحالة ، ليس أمامي سوى أن أواجه الموقف بنفسي .

شرع يلملم مجوهراته بهدوء محسوب ، وقال له : « استميحك العذر ياعزيزي هوميروس ، لكن ليس هناك أشقى من رئيس فقير . حتى الحياة تصبح مذلة » . في ذات تلك اللحظة ، كان هوميروس يراه بقلبه فأسلم له أسلحته .

في تلك الليلة ، أتت لثرا إلى بيتها متأخرة . من الباب ، رأت ألق المجوهرات تحت ضوء حجرة الطعام الزئبقي وكأنها رأت عقرباً في فراشها . صاحت مذعورة :

- لا تكن متوحشاً أيها الزنجي ، لم توجد هذه الأشياء هنا ؟

وكان لشرح هوميروس أن زاد من قلقها . جلست تتفحص الحلي واحدة واحدة بدقة صائغ . وبعد برهة زفرت قائلة : « لا بد أنها تساوي ثروة » . ثم أخذت تراقب هوميروس غير واجدة مخرجاً من حيرتها . قالت :

- ياللشيطان ! ماذا أفعل كي أتبين أن كل ما يقوله هذا الرجل صدق ؟

- ولمَ لا ؟ لقد رأيته منذ قليل يغسل ملابسه بنفسه ، ويعلقها على حبل في حجرته لتجف كما نفعل نحن .

- لأنه بخيل .

- أو لأنه فقير .

عاودت لثرا تفحص الحلي ، بلا اهتمام هذه المرة ، لأنها اقتنعت هي أيضاً . وعلى هذا ففي صباح اليوم التالي ، ارتدت خير ثيابها وتزينت بالحلي

التى عنّت لها أغلى ثمناً ورشقت فى أصابعها كل الخواتم التى تمكنت من رشقها حتى بالإبهام وكل السوارات التى استطاعت لبسها فى ذراعيها وذهبت لتبيعها . قالت عند خروجها ، ضاحكة فى زهو : « فلنر من سيجرؤ على طلب فواتير من لثرا ديفيز ! » . اختارت محل الصائغ المناسب ، كان أكثر كبرياء منه شهرة ، فقد كانت تعلم أن البيع والشراء يتمان فيه بلا أسئلة كثيرة . دخلت مرعوبة ولكن بخطوات راسخة .

أومأ لها بائع يرتدى بذلة رسمية ، هزيل وشاحب ، إيماءة مسرحية عندما قبل يدها . كان الضوء بالداخل أشد من ضوء النار بفعل المرايا والأنوار المبهرة ، وظهر المحل كله كقطعة من الماس . واصلت لثرا سيرها حتى نهاية الصالة ، دون أن تنظر إلى البائع حتى لا تفتضح المهزلة .

دعاها البائع إلى الجلوس أمام واحد من ثلاثة مكاتب منفصلة ، طراز لويس الخامس عشر ، تعمل عمل مناضد العرض ، وبسط فوقه منديلاً ناصعاً . ثم جلس فى مواجهة لثرا وانتظر .

– إننى فى خدمتك .

خلعت هى الخواتم والسوارات والعقود والأقراط وكل ما كانت تظهره وشرعت تضعها فوق المكتب فى نظام شطرنجى ، وقالت إن كل ما توده هو معرفة قيمتها الحقيقية .

وضع البائع عدسته فوق عينه اليسرى وطفق يتفحص الحلى فى صمت إكلينكى . وبعد برهة طويلة ، ودون أن يقطع فحصه ، سألها :

– من أين أنت يا سيدتى ؟

لم تكن لثرا قد توقعت هذا السؤال ، زفرت :

– آه يا سيدى ، من بعيد جداً .

– أتصور ذلك .

عاد إلى صمته بينما كانت لثرا تحدجه بعينيها الذهبيتين الرفيبتين . كرس الصائغ اهتماماً خاصاً للتاج الماسى وأفرد له مكاناً بجانب بقية الحلى . تنهدت لثرا ، قالت :

– أنت من برج العذراء بلا شك .

لم يتوقف الصائغ عن فحص المجوهرات :

– كيف علمت ذلك ؟

– من هيئتك !

لم يعلق بشىء حتى انتهى . توجه إليها بذات الأناة الأولى .

– من أين يأتى كل هذا ؟

قالت لثرا بصوت متهدج :

– إرث جدة ، ماتت فى العام الماضى فى « باراماريبو » عن سبعة وتسعين عاماً .

حينئذ نظر الصائغ إلى عينيها قائلاً : « آسف ، فالقيمة الوحيدة لهذه الأشياء هو وزنها ذهباً » . ثم التقط التاج بأطراف أصابعه وجعله يتلألأ تحت الضوء المبهر ، وأضاف :

– فيما عدا هذا ، فإنه قديم جداً ، قد يكون مصرياً ، إنه لا يقدر بمال لولا حالة ماساته السيئة . لكن على أية حال ، مازالت له قيمة تاريخية .

أما الحلى الأخرى ، الجمشت والزمرد والياقوت والأوبال ، فكانت كلها

زائفة بلا استثناء . قال الصائغ بينما كان يجمع الحلى ليعيدها : « لا شك أن الحجارة الأصلية كانت حقيقية ولكن من فرط انتقالها من جيل إلى جيل ضاعت الحجارة الأصلية واستبدلت بأحجار مزيفة » . شعرت لثرا بغثيان بلون الزجاج المزيف . أخذت نفساً عميقاً وسيطرت على رعبها . وشرع البائع يعزيها :

- يحدث كثيراً ياسيدتى !

قالت لثرا بارتياح :

- أجل ، لذا أريد التخلص منها .

عندئذ شعرت بأنها تجاوزت المهزلة لتصبح هى نفسها . ودون المزيد من المواربة ، أخرجت من حقيبة يدها الأزرار وساعة الجيب ودبابيس ربطة العنق والأوسمة الذهبية والفضية وبقية متعلقات الرئيس الشخصية ، ووضعتها فوق المنضدة . سألها الصائغ :

- وهذا أيضاً ؟

- أجل . كل شىء .

كانت الفرنكات السويسرية التى دفعت لها جديدة حتى أنها خشيت أن تتسخ أناملها بأحبارها الطازجة . تسلمتها دون أن تحصيها ، وودعها الصائغ عند الباب بطقوس التحية ذاتها . وعند خروجها ، استوقفها هنيهة ممسكاً بالباب الزجاجى ليسمح لها بالمرور ، وقال لها :

- شىء أخير ياسيدتى ، أنا من مواليد برج الدلو !

فى نفس الليلة ، حمل هوميروس ولثرا النقود إلى الفندق . وبعد مراجعة الحساب مرة أخرى ، كان لا يزال ينقص بعض المال . لذا خلع الرئيس خاتم

زواجه وساعة صدارته وزرى قميصه ودبوس ربطة عنقه التي كان يرتديها ووضعها على الفراش .

أعادت إليه لثرا خاتمه وقالت له :

– هذا لا . تذكار كهذا لا يجب أن يباع !

قبل الرئيس ولبس الخاتم مرة أخرى . أعادت لثرا إليه أيضاً ساعة صدارته وقالت : « ولا هذه ! » لم يوافقها الرئيس لكنها أعادتها إلى مكانها .

– من ذا الذى يفكر فى بيع ساعات فى سويسرا ؟

– لقد بعنا واحدة .

- أجل ، لكننا بعناها لما تزنه من ذهب لا لأنها ساعة .

– وهذه أيضاً من الذهب .

– أجل ، لكن بوسعك ألا تجرى العملية لا أن تحيا بدون معرفة الوقت .

ولم تقبل منه أيضاً نظارته الذهبية مع أن لديه نظارة أخرى من العظم . استشعرت وزن الحلى فى يدها ووضعت حداً لترددها . قالت :

– علاوة على أن لدينا ما يكفى .

قبل أن تخرج أنزلت الملابس المبتلة دون أن تستأذنه ، وحملتها معها لتجفيفها وكيها بمنزلها . عادا فى الدراجة النارية ، يقودها هوميروس ولثرا خلفه تحتضن خاصرته . فى ذلك المساء الخبّازى ، كانت أنوار الشارع قد أضيئت منذ وقت قصير وأشفقت الرياح بآخر أوراق الشجر وبدت الأشجار أطلالاً خربة . كانت ثمة قاطرة تهبط نهر « الروران » ويصدر منها صوت الراديو عالياً يملأ الشوارع بسيل من الموسيقى . كان چورچ براسان يغنى :

Mon amour tiens bien la barre,

le temps va passer par la`

et le temps est un barbare dans le genre d' Attila,

par la` ou` son cheval passe l`amour ne repousse pas.

سار هوميروس ولثرا فى هدوء وقد انتشيا بالأغنية ويعبق الياسنت الذى لا ينسى . بعد فترة بدت كأنها تفيق من حلم طويل :

– يا للشيطان !

– ماذا ؟

– هذا الشيخ التعس ... يالها من عيشة حقيرة !

فى يوم الجمعة التالى ، السابع من أكتوبر ، أجريت للرئيس عملية استغرقت خمس ساعات تركت الأمر حتى تلك اللحظة غامضاً كما كان من قبل . وكان عزاؤهما الوحيد حقيقة يقينهما من أنه ما زال حياً . بعد عشرة أيام ، نقلوه إلى غرفة مشتركة مع مرضى آخرين فاستطاعا زيارته . كان شخصاً آخر : تائهاً ، هزيلاً ، يتساقط شعره الخفيف بمجرد احتكاكه بالوسادة . ولم يتبق له من وسامته القديمة سوى طلاقة يده .

أشاعت أولى محاولاته للسير بعكازين طبيين اليأس في النفس . وكانت لثرا تسهر الليل إلى جواره حتى توفر عليه أجر الممرضة الليلية . وقضى أحد المرضى الليلة الأولى فى الصراخ ذعرا من الموت ، وقضت أيضا تلك الليالى الطويلة على آخر تحفظات لثرا .

وخرج الرئيس من المستشفى بعد أربعة أشهر من وصوله چينيڤ . دفع هوميروس ، مدير مدخراته الهزيلة الصارم ، حساب المستشفى ونقله فى سيارة الإسعاف بصحبة موظفين آخرين عاونوه فى حمله إلى الطابق الثامن .

أقام في حجرة الطفلين اللذين لم يعرفهما قط ، وشيئاً فشيئاً عاد إلى الواقع . ثابر على أداء تمرينات العلاج الطبيعي بإرادة عسكرية ، وعاود السير مستخدما عصا واحدة . بيد أنه على الرغم من ارتدائه ثياب الماضي الفاخرة ، كان بعيداً عما كانه من قبل ، ظاهرياً أو داخلياً . وخوفاً من الشتاء الذي كان ينذر بشدته ، بل كان في الواقع أسوأ شتاء منذ بداية القرن ، قرر العودة على سفينة تبحر من ميناء مرسيليا في الثالث عشر من ديسمبر ، ضارباً عرض الحائط برأي الأطباء الذين كانوا يرغبون في مراقبة صحته فترة أطول .

قبيل الموعد المحدد ، لم يكن لديه ما يغطي نفقاته . وأرادت لثرا أن تكمله بسحب نذر يسير مما ادخراه لطفليهما دون علم زوجها ، ولكنها وجدت هناك أقل مما كانت تتوقع . حينئذ اعترف لها هوميروس بأنه كان قد سحب بدوره بعض المال دون علمها لدفع مصروفات المستشفى .

استسلمت لثرا للأمر :

– حسن ، فلنعتبر أنه كان ابننا الأكبر .

في الحادي عشر من ديسمبر ، أركباه قطار مرسيليا وسط عاصفة ثلجية شديدة ، وحين عادا إلى البيت وجدا خطاباً يودعهما فيه على مائدة حجرة الطفلين . إلى جانب خاتم زوجته الذي لم يحاول بيعه قط ، ترك خاتم زواجه لبربارا وساعة صدارته للثرو . ولما كان يوم أحد ، توجه بعض الجيران الكاريبيين الذين اكتشفوا السر إلى محطة كورنافان بصحبة فرقة الموسيقى الهارب من فيراكروث . كان الرئيس فاقد الأنفاس بمعطفه المتهالك ولفاعه الملون الذي كان من قبل للثرا . ومع هذا ، وقف على سلم آخر عربة يودع الناس بينما تسوط العاصفة الثلجية قبعته .

أسرع القطار في سيره عندما فطن هوميروس إلى أن عصا الرئيس

مازالت فى يده . جرى حتى نهاية الرصيف وقذفها بقوة كافية حتى يستطيع الرئيس أن يمسك بها فى الهواء ، لكنها وقعت وتحطمت تحت عجلات القطار . كانت لحظة مرعبة . آخر ما رأته لثرا اليد المرتعشة الممتدة تحاول أن تمسك بالعصا ولم تمسك بها ، وحارس القطار الذى تمكن من القبض على لفاع الشيخ المغطى بالجليد وأنقذه من السقوط . جرت لثرا مذعورة للقاء زوجها محاولة الضحك خلف دموعها . صرخت :

- يا إلهى ، لقد نجا هذا الرجل بمعجزة .

وصل سليما معافى حسبما قال لهما فى برقية الشكر المطولة . وانقطعت أخباره ما يربو على العام . وفى آخر الأمر ، وصلتهما رسالة من ست صفحات بخط يده لم يتعرفا عليه من خلالها . كانت آلامه قد عاودته بنفس الشدة والدقة ولكنه وطد النفس على عدم الإذعان لها وتكريس حياته ليعيش أيامه كيفما تأتى . وأهداه الشاعر إيميه سيزير عصا أخرى مطعمة بالصدف ولكنه قرر عدم استخدامها . كان قد استأنف أكل اللحم بانتظام منذ ستة أشهر وكذا كافة أنواع الحيوانات البحرية ، وكان بمقدوره تناول عشرين فنجاناً من القهوة القاتمة يومياً لكنه لم يكن يقرأ الفنجان لأن تنبؤاته كانت عكسية . وفى اليوم الذى أتم فيه عامه الخامس والستين ، راقه تناول عدة كئوس من روم المارتينيك اللذيذ وعاد إلى التدخين . وبالطبع ، لم تتحسن حالته الصحية بيد أنها لم تتدهور .

ومع هذا ، فإن السبب الحقيقى لرسالته هو إبلاغهما بأنه يشعر بإغراء العودة إلى بلاده ليرأس حركة تجديدية من أجل قضية عادلة ووطن كريم ، وإن كان دافعه الوحيد هو تحقيق مجد بائس : ألا يقضى نحبه شيخاً على فراشه . واختتم رسالته فى هذا المعنى : لقد كانت رحلته إلى چينيف من تدابير العناية .

يونية ، ١٩٧٩

الحكاية الثانية

القديســـة

التقيت بمرجريتو دوارتى مرة أخرى بعد مرور اثنين وعشرين عاماً . لاح فجأة فى أحد شوارع « تراستيفرى » الغامضة . ووجدت مشقة فى التعرف عليه من أول نظرة لصعوبة لكنته الإسبانية ولهيئته الطيبة كأهل روما القدامى ، وقد صار أشيب الشعر قليله واختفى كل أثر لمسلكه الكئيب وملابسه الجنائزية ، وكانت كملابس محام من الأنديز ، التى حضر بها إلى روما فى المرة الأولى . لكننى ، خلال حديثنا ، شرعت أنقذه من غدر الزمن وأراه كما كان : غامضاً ، مباغتاً ، بعزيمة حجّار .

قبل فنجان القهوة الثانى ، فى إحدى الحانات التى اعتدنا ارتيادها فى زمن آخر ، جرؤت على سؤاله السؤال الذى كان ينخرنى من داخلى :

- وماذا حدث للقديسة ؟

- القديسة مازالت تنتظر .

كنت والتينور رفائيل ريبيرو سيلفا الوحيدين القادرين على فهم الشحنة الإنسانية الرهيبة فى هذه الإجابة ، وكنا نقف على حقيقة مأساته حتى أننى اعتقدت ، على مدى سنوات ، أن مرجريتو دوارتى شخصية تبحث عن مؤلف ، شخصية قد ننتظرها نحن الروائيين طوال العمر . وإذا كنت أنا قد حلت دون أن تجدنى فمرد ذلك أن خاتمة قصته عنت لى تفوق الخيال .

كان قد جاء الى روما فى ذلك الربيع المشرق الذى أصيب فيه بيوس الثانى عشر بأزمة فواق لم يستطع علاجها لا حذق الأطباء ولا حيل السحرة . وكانت أول مرة يخرج فيها من « توليما » ، قريته الجبلية ، بجبال الأنديز الكولومبية ، وكان هذا جليًا حتى فى طريقة نومه .

جاء فى صباح أحد الأيام إلى قنصليتنا يحمل حقيبة من خشب الصنوبر المصقول ، بدت بشكلها وحجمها ، كحقيبة آلة التشيللو وأفضى إلى القنصل بسر سفره العجيب . حينئذ خابر القنصل مواطنه التينور رفائيل ريبيرو سيلفا كى يبحث له عن غرفة فى البنسيون الذى كنا نعيش فيه . وهكذا عرفته .

لم يكن مرجريتو دوارتى قد تخطى مرحلة التعليم الابتدائى ، لكن موهبته فى « الآداب الجميلة » منحته تكوينًا أرحب عن طريق قراءة أية مادة مطبوعة تقع تحت يده . فى الثامنة عشرة من عمره ، عندما ، كان كاتبًا بالبلدية ، تزوج من فتاة جميلة لبت نداء ربها بُعيد مولد أول طفلة . وتوفيت هذه أيضا ، وكانت أشد حسنًا من أمها ، ضحية حمى فى السابعة من عمرها . بيد أن قصة مرجريتو دوارتى الحقيقية بدأت قبل ستة أشهر من مقدمه إلى روما ، عندما دعت الحاجة إلى نقل جبانة قريته لتشييد خزان . وكما فعل جميع سكان المنطقة ، نبش مرجريتو رفات موتاه لينقلها إلى الجبانة الجديدة . كانت زوجته رميمًا . فى القبر المجاور ، على العكس من ذلك ، كان جسد طفلته صحيحًا بعد إحدى عشرة سنة حتى أنهم عندما كشفوا غطاء تابوتها استنشقوا أريج الورود الطازجة التى دفنت معها . ومن أشد الأمور غرابة أن جسدها كان منعدم الوزن .

ماجت القرية بمئات الفضوليين الذين شدهم نبأ المعجزة . لم يكن ثم شك .

كان عدم تحلل الجسد من أعراض القداسة البينة ، حتى أسقف الأبرشية رأى أن مثل هذه المعجـزة ينبغي أن تعرض على الفـاتيكان . وعلى هذا الأسـاس حُصِّلت الأموال من العامة حتى يتمكن مرجريتو دوارتى من السفر إلى روما ليناضل من أجل قضية لم تعد قضيته وحده أو قضية دائرة قريته الضيقة بل أصبحت قضية قومية .

وبينما كان يحكى لنا قصته فى بنسيون حى « باريولى » الوادع ، فتح مرجريتو دوارتى القفل وكشف غطاء الصندوق المحكم . كانت تلك هى الطريقة التى شهدت بها والتينور ريبيرو سيلفا المعجزة . لم تكن مومياء ذابلة كتلك التى تُرى فى الكثير من متاحف العالم ، بل كانت طفلة ترتدى فستان عروس مازالت نائمة بعد أن دفنت فى التراب زمنًا طويلاً . كان جلدها غضًا ودافئًا وعيناها المفتوحتان رائعتين وتعطيان انطباعًا لا يطاق بأنهما ترياننا من الموت . لم يتحمل الساتان ولا أزهار البرتقال الصناعية مرور الزمن كما تحمله جلدها الغض ، لكن الورود التى وضعت فى يديها ظلت نضرة . وكان وزن الصندوق بالفعل هو نفسه عندما أخرجنا جسدها .

بدأ مرجريتو دوارتى مساعيه فى اليوم التالى لوصوله : بعون دبلوماسى رحيم وغير فعال ، أولا ، ثم بشتى الحيل التى تراءت له لكى يتغلب على عوائق الفاتيكان اللانهائية . كان مقتضبًا دائمًا بصدد مساعيه ، بيد أنه كان معروفًا أنها كثيرة ولا طائل تحتها . كان دائم الاتصال بكافة الجماعات الدينية والمنظمات الإنسانية التى وجدها فى طريقه : كانوا يستمعون إليه فى اهتمام وبلا دهشة ويعدونه بمساع عاجلة لم تنجز قط .

والحق أن تلك الحقبة لم تكن مواتية ، فقد تأجلت كل أمور الفاتيكان حتى يجتاز البابا أزمة الفواق التى استعصت ليس فقط على أحدث وسائل الطب

الأكاديمى بل وعلى كـافة الوصفات السحرية التى أرسلت إليه من كل أرجـاء العالم .

وأخيراً ، فى شهر يولية ، برأ بيوس الثانى عشر من مرضه وذهب فى عطلته الصيفية إلى « كاستلجاندولفو » . حمل مرجريتو القديسة إلى أول مقابلة أسبوعية على أمل أن يريهـا له . ظهر البـابا فى الفنـاء الداخلى ، بشرفة منخفضة ، وتمكن مرجريتو من رؤية أظافره المشذبة جيداً وشم أريج اللافندر ، لكن البابا لم يقترب من السياح الذين وفدوا من أنحاء العالم لرؤيته ، كما كان يأمل مرجريتو ، بل اكتفى بإلقاء ذات الخطبة بست لغات وبارك الجميع .

بعد تأجيلات عديدة ، قرر مرجريتو أن يواجه الأمور بنفسه ، وحمل إلى أمانة الدولة خطاباً مكتوباً بخط يده فى حوالى سبعين صفحة لم يتلق رداً عليه . وكان هو قد توقع ذلك إذ أن المسئول الذى تسلمه رسمياً لم يكلف نفسه مشقة إلقاء نظرة رسمية على الطفلة الميتة وكان الموظفون المارون بالقرب منها ينظرون إليها بلا أدنى اهتمام . قال له واحد منهم إنهم تلقوا فى العام السابق ما يربو على ثمانمائة خطاب تطلب تقديس جثث لم تتحلل من أماكن مختلفة من العالم . أخيراً ، طلب مرجريتو التثبت من انعدام وزن جسد طفلته ، فتأكد المسئول من ذلك ولكنه أبى قبوله . قال :

– قد تكون حالة إيحاء جماعى !

فى أوقـات فـراغـه النادرة ، أيام الآحـاد القـاحلة صـيفاً ، كـان مرجريتو يمكث فى حجرته ممعناً فى قراءة أى كتاب يراه يهم قضيته وفى نهاية كل شـهر ، بوازع من نفسه ، كان يسجل فى كراسة مدرسية قائمة تفصيلية بنفقاته ، بخط رئيس كتبة جميل ، كى يقدم حسـاباته الدقيقة والضرورية لمولى قريته .

وقبل أن ينقضي العام ، كان يعرف كافة متاهات روما كمن ولد هناك ويتحدث إيطالية سهلة وبكلمات قليلة جداً كقشتاليته الأنديئية (*) وعلى معرفة كبيرة بالإجراءات الرسمية لإعلانات القداسة . ولكنه قضى فترة أطول قبل أن يغير بذلته الجنائزية أو صدارته أو قبعة القضاة التي كانت أشبه ما تكون ، في روما ذلك الوقت ، بزي بعض الجماعات السرية ذات الأهداف الخفية .

كان يخرج في الصباح الباكر ومعه صندوق القديسة وأحياناً يعود متأخراً ، متعباً وتعيساً ، ولكن ببصيص من نور يحيي في نفسه الأمل لليوم التالي . كان يقول :

- إن القديسين يعيشون زمنهم الخاص .

كانت تلك أول مرة أقيم فيها بروما لأدرس في «المركز التجريبي للسينما» ، وعشت عذابه بكل ما فيه من شدة لا تنسى . كان البنسيون الذي نعيش فيه ، في واقع الأمر ، شقة حديثة على بعد خطوات من « ڤيا بورجيزي » ، تشغل صاحبته حجرتين وتؤجر أربعاً للطلبة الأجانب . كنا نسميها ماريا بيلا ، وكانت مليحة وحادة المزاج في أوج خريفها ، ووفية دائماً للقاعدة المقدسة التي تنص على أن كل فرد ملك متوج في غرفته . أما من كانت تضطلع حقيقة بالأمور هناك فهي أختها الكبرى ، العمة أنطونييتا ، ملاك بلا جناحين تعمل بالساعة نهاراً وتجوب أرجاء المنزل بدلوها ومسّاحتها وتصقل فوق حدود الإمكان رخام الأرضيات . وهي التي علمتنا أكل العصافير المغردة التي يصطادها بارتولينو ، زوجها ، الذي اعتاد ذلك منذ زمن الحرب والذي انتهى إلى دعوة مرجريتو كي يقيم ببيته عندما أضحت موارده لا تحتمل أسعار ماريا بيلا .

لم يكن ثم منزل أقل اتفاقاً وأسلوب حياة مرجريتو من ذلك المنزل الذي

(*) نسبة إلى جبال الأنديز .

كـنا نعيش فيـه بلا قانون . كل ساعة كانت تخبئ لنـا شيئًا جديدًا ، حتى فى الفجر ، عندما كان يوقظنا الزئير المرعب لأسد حديقة حيوان ڤيابورجيزى . وكان التينور ريبيرو سيلفا قد نال تغاضى أهل روما عن تدريباته الغنائية المبكرة، فيصحو فى السادسة ويأخذ حماماً طبياً بالماء البارد ويشذب لحيته وحاجبيه ، بعد أن يرتدى « روبه » ذا المربعات الاسكتلندية ولفـاعـة من الحـرير الصـينى ويتعطر بعطره الشخصى ، ويسلم جسده وروحه للتدرب على الغناء . كان يفتح نوافذ الغرفة على مصاريعها ، ونجوم الشتاء مازالت فى عرض السماء ، ويشرع فى إحماء صوته بتنغيمات تصاعدية من أعظم أغانى الحب حتى ينطلق فى الغناء بأعلى صوته . وكان الناس يتوقعون يوميًا ، إذا بلغ أعلى طبقـات نغمة الـ « دو » ، أن يرد عليه أسد ڤيابورجيزى بزئير كرجف الأرض .

وكانت العمة أنطونييتا تصيح مذعورة :

– لقد بُعث سـان ماركوس فيك يا بنى ، فهو الوحيد الذى كـان يخاطب الوحوش .

فى أحد الأيام ، لم يكن الأسد من عاجله بالرد ، بدأ التينور دويتو الحب فى « عطيل » :

Gia' nella notte densa s,estingue ogni clamor.

وفـجـأة ، من نهاية الفناء ، جـاءنا الرد فى صـوت سـوبرانو جمـيل . لم يتوقف التينور وغنى الصوتان الأغنية كاملة متعة للجيران الذين فتحوا النوافذ ليباركوا منازلهم بذلك السيل الجارف من الحب . كاد التينور يسقط مغشياً عليه عندما علم أن « ديدمونته » الخفية لم تكن سوى « ماريا كالايا » العظيمة .

وأعتقد أن تلك الحادثة هى التى وفرت لمرجريتو دوارتى ذريعة مشروعة كى يندمج فى حياة البنسيون . منذ ذلك الحين ، جلس معنا على المائدة وليس فى

المطبخ كما كان يفعل فى البداية حيث كانت العمة أنطونييتا تمتعه يوميًا بوجبة العصافير المغردة ، رائعة مطبخها .

بعد الأكل ، كانت ماريا بيلا تقرأ علينا صحف اليوم حتى نعتاد نطق الإيطالية وكانت تكمل الأخبار على هواها وبملاحة تدخل البهجة على حياتنا .

في يوم من تلك الأيام ، قصت علينا ، بصدد القديسة ، أن فى مدينة « باليرمو » متحفًا ضخمًا يضم أجسادًا لم تتحلل لرجال ونساء وأطفال ، وبه أيضًا العديد من الأساقفة نقلت رفاتهم من جبانة واحدة تنتمى إلى رهبانية الكابوتشينو . قضّ هذا النبأ مضجع مرجريتو ولم ينعم بلحظة سلام حتى ذهبنا إلى باليرمو . بيد أن نظرة واحدة عابرة خلال الأروقة المكتظة بمومياوات بلا مجد كفته ليصدر حكمًا فيه عزاء له . قال :

– ليست نفس الحالة .. يبدو على هؤلاء فى الحال أنهم موتى .

بعد الغداء ، تغوص روما فى وسن أغسطس ، ولا تتحرك الشمس فى وسط السماء ؛ وفى سكون الثانية بعد الظهر ، لا يسمع إلا خرير الماء ، صوت روما الأصيل . أما فى السابعة مساء ، فتتفتح النوافذ دفعة واحدة استدعاءً للنسيم الذى تبدأ حركته ، وتخرج إلى الشارع جموع بهيجة بلا أية غاية أخرى سوى الحياة ، وسط صخب الدراجات النارية وصراخ بائعات البطيخ وأغنيات الحب بين زهور الشرفات .

لم نكن أنا ولا التينور نستلقى ساعة الظهيرة . كنا نخرج بالفسبا ، هو يقودها وأنا خلفه ، ونحمل المثلجات والشيكولاتة إلى بنات الهوى الصغيرات اللائى كن يحلقن كالفراشات تحت أشجار ڤيا بورجيزى العتيقة بحثًا عن السياح المؤرقين فى الشمس الحارقة . كن جميلات ، فقيرات وحنونات ، كأغلبية إيطاليات ذلك العهد ، يلبسن الأورجاندا الزرقاء أو البوبلين الوردى أو الكتان

الأخضر ، ويحتمين من الشمس بمظلات نخرتها أمطار الحرب الأخيرة . كانت صحبتهن متعة إنسانية لأنهن كن يخرقن قانون المهنة ولا يعبأن بفقد عميل من أجل أن يذهبن معنا لتناول القهوة والحديث فى الحانة القريبة أو للتنزه فى عربة الخيل فى الحديقة العامة أو للتأسى على الملوك المخلوعين وعشيقاتهم المأساويات وهم يركبون الخيل عند المساء فى « الجالو باتويو » . وكم من مرة قمنا بالترجمة لهن مع أجنبى ضال .

لم نصطحب مرجريتو دوارتى معنا تلك المرة كي يراهن بل لكى يشاهد الأسد الذى يعيش طليقًا فى جزيرة قفر أحيطت بخندق عميق . وما أن لمحنا على الضفة الأخرى حتى راح يزأر فى هياج أدهش حارسه . وأسرع إلى هناك زوار الحديقة فى ذهول . حاول التينور أن يكشف عن هويته من خلال نغمة الـ « دو » الصباحية لكن الأسد لم يعره اهتماماً وبدأ يزأر نحونا بلا تمييز ، لكن حارسه فطن فى الحال إلى أنه كان يزأر لوجود مرجريتو فقط . وهكذا كان : أينما تحرك هو تحرك الأسد ، فإذا اختبأ أقلع عن الزئير . فكر الحارس ، وكان حاصلاً على الدكتوراه من جامعة السين ، فى أن مرجريتو ربما اختلط بليوث أخرى فى نفس ذلك اليوم وأنه لايزال يحتفظ برائحتها . فيما عدا ذلك التفسير الخاطئ ، لم يكن لديه تفسير آخر . قال :

– على أية حال ، ليس هذا زئير حرب بل زئير شفقة !

مع هذا ، لم تكن تلك الواقعة هى التى خلفت انطباعًا قويًا فى نفس التينور ريبيرو سيلفا وإنما تهيج مشاعر مرجريتو عندما توقفنا للحديث مع بنات الحديقة . قص ذلك على مائدة الطعام ، فاتفقنا – البعض منا بمكر والبعض الآخر عن اقتناع – على أن مساعدة مرجريتو فى التخلص من وحدته قد تكون عملاً خيراً . وفى خضم تأثرها برقة قلوبنا ، ضغطت ماريا بيلا صدرها ، صدر أم رءوم مقدسة ، بيديها المليئتين بالخواتم المقلدة وقالت :

– وددت لو قمت بذلك لولا أنني لا أطيق الرجال الذين يرتدون صدارات .

وهكذا مر التينور بفيابورجيزي في الثانية بعد الظهر وحمل على متن فسباه « الفراشة » التي عنّت له خير من يستطيع أن يمنح مرجريتو دوارتي ساعة من الصحبة الطيبة . في حجرة نومه ، خلع ملابسها وغسلها بالصابون المعطر وجففها وعطرها بماء الكولونيا الخاص به ونثر جسدها كله بمسحوق التلك الممزوج برائحة الكافور والذي يستخدمه بعد الحلاقة ، وأخيرا ، دفع لها ثمن الوقت الذي استغرقاه وثمن ساعة أخرى وشرح لها حرفيا ما يجب أن تفعله .

عبرت الجميلة العارية على أطراف أصابعها البيت الخافت الضوء كحلم من أحلام القيلولة ونقرت باب آخر غرفة نقرتين خفيفتين . فتح مرجريتو دوارتي الباب ، حافي القدمين وبلا قميص .

قالت في نبرة وإيماءات تلميذة :

– مساء الخير أيها الشاب ، أرسلني التينور .

تلقى مرجريتو المفاجأة في عزة . فتح لها الباب كي تدخل ، واستلقت هي على الفراش بينما أسرع هو يلبس قميصه وحذاءه ليلقاها بالاحترام المفروض . ثم جلس على كرسي الى جوارها وبدأ الحديث . دهشت الفتاة وطلبت منه أن يسرع لأن لديهما ساعة واحدة فقط ، لكنه لم يلتفت اليها .

قالت الفتاة فيما بعد إنها كانت ستبقى معه ما يشاء من وقت ودون أن تكلفه سنتيما واحدا لاستحالة أن يكون في العالم رجل آخر في أدبه .

دون أن تدري ما عساها أن تفعل في تلك اللحظة ، تفحصت الغرفة بنظرتها فلاحظت وجود الصندوق الخشبي فوق المدفأة . سألته إذا كانت آلة الساكسفون . لم يجبها مرجريتو بل فتح الشيش قليلا ليدخل بعض الضوء وحمل

الصندوق الى الفراش ورفع غطاءه . أرادت الفتاة أن تقول شيئا لكن فكها انخلع من مكانه ، أو كما قالت هى فيما بعد :

"Mi si gelo' il culo".

فرت مذعورة ولكنها أخطأت الاتجاه في الممر فاصطدمت بالعمة أنطونييتا التى كانت فى طريقها الى غرفتى لتضع لمبة جديدة فى المصباح . وبلغ فزعهما مبلغا جعل الفتاة لا تجرؤ على الخروج حتى بعد أن حل الليل .

لم تدر العمة أنطونييتا قط ماذا حدث ؟ دخلت حجرتى مذعورة ولم تتمكن من استبدال اللمبة لارتعاد فرائصها . سألتها ماذا ألم بها ؟ فأجابتنى : « هذا البيت « مسكون » ، والآن فى وضح النهار » . وقصت علىّ فى يقين تام أنه خلال الحرب ذبح ضابط ألمانى عشيقته فى الغرفة التى يسكنها التينور الآن ، وأنها فى العديد من المرات ، بينما تجوب هى البيت للقيام بعملها ، رأت شبح حسناء مقتولة تسير وراءها فى الممرات . وأضافت :

– لقد رأيتها الآن تسير عارية ، هى نفسها !

استعادت المدينة رتابتها فى الخريف ، وأغلقت مقاهى الصيف المزدهرة أبوابها مع هبوب أول رياح ، وعدنا أنا والتينور الى مطعم « تراستيفرى » حيث اعتدنا تناول العشاء مع طلبة غناء الكونت كارلو كالكانى ومع بعض زملائى فى مدرسة السينما ، وكان من بين أكثر هؤلاء مواظبة « لاكيس » ، اليونانى الذكى وخفيف الظل ، الذى لم تكن تعيبه سوى خطبه الباعثة على النعاس عن الظلم الاجتماعى . من حسن الطالع أن مغنى التينور ومغنيات السوبرانو كانوا ينجحون دائما فى هزيمته بمقطوعات أوبرالية مغناة بأعلى طبقات أصواتهم ولم تكن تزعج أحدا حتى بعد منتصف الليل ، بل على العكس ، كان بعض المارة المتأخرين ينضمون الى الكورس ويفتح الجيران الشرفات ليصفقوا لهم .

في إحدى الليالي ، بينما كنا نغني ، دخل مرجريتو خلسة حتى لا يقاطعنا . كان يحمل صندوق خشب الصنوبر الذي لم يسعفه الوقت كي يتركه في البنسيون بعد أن أرى القديسة الى قس سان خوان دي لتران الذي كان نفوذه لدى جماعة « الريتو » المقدسة معروفا للجميع . تمكنت من رؤيته بطرف عيني وهو يضعه تحت منضدة منعزلة وجلس حتى ننتهي من الغناء .

وكما كان يحدث عادة قرب منتصف الليل ، عندما يقل عدد رواد المطعم ، ضممنا عدة موائد وتلازمنا : من كانوا يغنون ومن كان منا يتحدث عن السينما وأصدقاء للجميع من بينهم مرجريتو دوارتي الذي كان معروفا هناك بأنه الكولومبي الصامت والحزين الذي لا يعرف أحد عنه شيئا . سأله لاكيس في فضول إن كان يعزف على آلة التشيللو ؟ ، فذعرت لهذا السؤال الطائش وغير محمود العواقب من وجهة نظري . ولم يستطع التينور المنزعج مثلي أن يتجنب ما سيحدث . كان مرجريتو الوحيد الذي تلقى السؤال بكل طبيعية . قال :

– ليست هذه آلة التشيللو ، إنها القديسة !

ووضع الصندوق على المنضدة وفتح قفله وكشف غطاءه . انتابت المطعم ارتعاشة رعب وتجمهر بقية الحضور والنُدُل ثم عمال المطبخ بمآزرهم الملطخة بالدماء ، تجمهروا ذاهلين ليشهدوا المعجزة . رسم بعضهم علامة الصليب وركعت إحدى الطاهيات ويداها مضمومتان ، فريسة رعدة محمومة ، وصلّت في صمت .

ومع هذا ، بعد أن خبا الهياج السابق ، اشتبكنا في مناقشة صاخبة حول عدم كفاية القداسة في زمننا . وكان لاكيس بالطبع أكثرنا تطرفا ، وكل ما انتهى اليه هو فكرة لعمل فيلم نقدي موضوعه القديسة . قال :

– إنني لعلى يقين من أن « تشيزاري » العجوز لن يدع موضوعا كهذا يفلت من يده !

كان يعني بذلك « تشيزارى تزافاتيني » ، أستاذ مادة السيناريو ، وأحد عظماء تاريخ السينما والوحيد الذي كانت له علاقة شخصية بنا على هامش الدراسة . كان يحاول أن يعلمنا ، الى جانب المهنة ، أن نرى الحياة من منظور جديد . كان ماكينة لانتاج السيناريوهات وكانت الموضوعات تتناثر منه ، ضد رغبته أحيانا ، وفي سرعة شديدة بحيث كان في حاجة دائما الى من يفكر له فيها بصوت مرتفع ويمسك بها في الهواء . على أنه ما أن ينتهي منها حتى يخبو حماسه . كان يقول : « من المؤسف أن نحولها أفلاما » . فقد كان يرى أنها قد تفقد كثيرا من سحرها الأصلي على الشاشة . كان يحتفظ بالأفكار مرتبة حسب موضوعاتها ومثبتة في الحائط بدبابيس ، وكانت لكثرتها تغطي حجرة كاملة بمنزله .

في يوم السبت التالي ، ذهبنا للقائه بصحبة مرجريتو دوارتي . كان شديد الولع بالحياة حتى أننا ألفيناه على باب منزله ، بشارع أنجيلا ميريشي ، يتقد لهفة للفكرة التي وافيناه بها بالهاتف . لم يحينا ببشاشته المعهودة ، بل قاد مرجريتو الى منضدة معدة وفتح الصندوق بنفسه . عندئذ ، حدث ما لم نكن نتخيله . بدلا من أن يجن كما كان متوقعا ، اعتراه ضرب من ضروب الشلل العقلي . همهم في رعب :

– واعجباه !

نظر الى القديسة في صمت لدقيقتين أو ثلاث وأغلق الصندوق بنفسه ، ودون أن ينبس ببنت شفة قاد مرجريتو الى الباب ، كأنه طفل يخطو خطواته الأولى ، وربت على ظهره مودعا . قال له : « أشكرك يا بني ، ألف شكر ، وليكن الله معك في كفاحك » . وعندما أغلق الباب عاد الينا وأبلغنا بحكمه ، قال :

– لا تناسب السينما ، لن يصدقها أحد .

لازمنا هذا الدرس غير المنتظر فى ترام العودة : إذا كان هو قد قال ذلك فلا مجال للمناقشة : القصة غير مناسبة . ومع هذا استقبلتنا ماريا بيلا برسالة عاجلة تقول إن تزافاتيني ينتظرنا فى ذات الليلة بدون مرجريتو .

وجدناه فى لحظة من لحظات تألقه . كان لاكيس قد اصطحب معه اثنين أو ثلاثة من زملائه ، لكنه لم يبد أنه رآهم عندما فتح الباب . صرخ :

– وجدتها ! سيكون الفيلم مدويا لو أتى مرجريتو بمعجزة إحياء الطفلة .

سألته :

– فى الفيلم أم فى الحقيقة ؟

كبت هو ضيقه وقال لى : « لا تكن أحمق » . ولكننا رأينا فى الحال بريق فكرة لا تقاوم فى عينيه ، أضاف : « إلا إذا استطاع إعادتها الى الحياة بالفعل ! » . ثم فكر فى جدية : « عليه أن يجرب » .

كان خاطرا مغريا ولحظيا قبل أن يواصل عرض فكرته . شرع يجوب منزله كمعتوه سعيد -يومئ بيديه ويحكى قصة الفيلم فى جلبة صاخبة . كنا نستمع اليه منبهرين ، ونرى المشاهد كعصافير فوسفورية تفر منه أسرابها وتحلق فى جنون فى أرجاء المنزل . قال :

– وفى ليلة ما ، بعد وفاة عشرين بابا لم يستقبلوه ، يدخل مرجريتو منزله، متعبا وهرما ، ويفتح الصندوق ويداعب وجه الطفلة الميتة ويقول لها بكل حنان العالم : « إن كنت تحبين أباك ، يا بنيتى ، انهضى وسيرى » .

نظر إلينا جميعا واختتم قوله بلهجة المنتصر :

– فتنهض الطفلة !

كان ينتظر منا ردا لكننا لم نجد ما نقوله من فرط حيرتنا . فيما عدا

لاكيس اليونانى الذى رفع إصبعه كأنه فى مدرسة ليطلب الكلمة . قال متوجها مباشرة الى تزافاتينى إزاء دهشتنا :

– مشكلتى أننى لا أصدق هذا ، اغفر لى يا أستاذ لكننى لا أصدقه .

عندئذ كان تزافاتينى هو من أصيب بالدهشة ، سأله :

– ولم لا ؟

قال لاكيس فى ضيق :

– لا أعرف ، لا يمكن أن يكون حقيقيا .

صاح هنا الأستاذ فى دوى ربما أسمع الحى بأكمله :

– بحق الشيطان ! إن هذا ما لا أطيقه فى الستالينيين ، فهم لا يعتقدون فى الواقع .

فى الخمس عشرة سنة التالية ، حسبما قص على هو نفسه ، حمل مرجريتو القديسة الى كاستلجاندولفو على أمل أن يريها للبابا . وفى مقابلة حضرها حوالى مائتى حاج من أمريكا اللاتينية ، تمكن من قص حكايته على البابا الطيب يوحنا الثالث والعشرين بين لكزات ودفعات من الخلف . ولكنه لم يتمكن من أن يريه الطفلة لأنه تركها قبل أن يدخل الى جانب أمتعة حجيج آخرين ، خوفا من وقوع حادث إرهابى . استمع إليه بقدر ما استطاع من اهتمام وسط الزحام وربت على خده مشجعا وقال له :

– براڤو يا بنى ! إن الله سيجزيك على مثابرتك .

بيد أن المرة التى شعر فيها بحق بقرب تحقيق حلمه كانت فى العهد الوجيز جدا للبابا الباسم ألبينو لوتشانى . فقد وعده أحد أقرباء البابا بالوساطة بعد أن تأثر بحكايته . لم يصدقه أحد . لكنه ، بعد يومين وبينما كانوا على مائدة

الغداء ، تلقى مخابرة تليفونية برسالة عاجلة وبسيطة لمرجريتو : ينبغي عليه ألا يبرح روما ، فسوف يدعى قبل يوم الخميس الى مقابلة خاصة فى الفاتيكان .

لم يعرف أحد قط ما إذا كانت دعابة . ولم يكن مرجريتو ليصدق ذلك . ظل مترقبا . لم يخرج من منزله . وإذا اضطر الى دخول الحمام كان يعلن بصوت مرتفع : « إنى ذاهب الى الحمام » . وكانت ماريا بيلا ، حاضرة الدعابة دائما وهى على أبواب الشيخوخة ، تقهقه قهقهة امرأة متحررة ، صارخة :

– نعلم يا مرجريتو ، لأن البابا قد يخابرك .

فى الأسبوع التالى ، وقبل يومين من المخابرة المعلنة ، انهار مرجريتو بسبب عنوان الصحيفة التى ولجت إليه من تحت الباب : « وفاة البابا » . ظل للحظة يراوده الأمل فى أن يكون عددا قديما وزع خطأ ، فلم يكن من المعقول أن يموت البابا كل شهر . ولكن هذا ما حدث : ألبينو لوتشانى الباسم الذى اختير قبل ثلاثة وثلاثين يوما كان قد أصبح ميتا فى فراشه .

عدت الى روما بعد اثنين وعشرين عاما ، وما كنت لأتذكر مرجريتو دوارتى ما لم أقابله صدفة . كنت مهموما بما فيه الكفاية بما خلفته يد الزمن من خراب فلم أفكر فى أحد .

سقط بلا توقف رذاذ سخيف كالحساء الفاتر ، وتعكر ما كان ، فى زمن آخر ، ضوءا ماسيا ، وصارت ما كانت من قبل أماكنى وتغذى حنينى أماكن أخرى وغريبة . كانت البناية التى سكناها لاتزال فى مكانها لكن أحدا لم يتذكر ماريا بيلا . ولم يجبنى أحد فى رقم الهاتف المكون من ستة أعداد والذى أرسله لى التينور ريبيرو سيلفا عبر السنين . وذات مرة تناولت فيها غدائى مع سينمائيين جدد ذكرت اسم أستاذى فخيم لبرهة صمت مفاجىء فوق المنضدة حتى واتت أحدهم الشجاعة ، فقال :

– تزافاتينى ؟ لم أسمع عنه من قبل .

هكذا كان : لم يكن أحد قد سمع عنه . تشعثت أشجار ڤيابورجيزى تحت المطر والتهمت حشائش بلا زهور الجالو باتويو ، مضمار الأميرات البائسات ، وحل مخنثون مفتولو العضلات تزيوا بزى البنات محل حسناوات الماضى . وكان الأسد العجوز ، الجرب والمزكوم ، هو آخر من تبقى من سلالة انقرضت ، حبيس جزيرة المياه الراكدة . لم يعد أحد يغنى أو يموت صباً فى المطاعم البلاستيكية بميدان إسبانيا . وأصبحت روما ذكرياتنا روما قديمة داخل روما القياصرة العتيقة. فجأة ، استوقفنى صوت ربما كان صادرا من عالم الغيب ، فى أحد شوارع تراستيفرى :

– مرحى ، أيها الشاعر !

كان هو : شيخا ، مكدودا . كان خمسة بابوات قد قضوا نحبهم وأظهرت روما الخالدة أوائل أعراض التداعى ، وهو مازال ينتظر ، « لقد انتظرت طويلا ولا يمكن أن يبقى سوى القليل » ، قال هذا وهو يودعنى بعد حوالى أربع ساعات من الذكرى ، « ربما انتهى الأمر فى شهور » . وذهب يجر قدميه فى نهر الشارع ، بحذائه العسكرى وقبعته الحائلة كقبعات أهل روما القدامى ، وبدون أن يلقى بالا الى مستنقعات الماء التى بدأ الضوء يتأسن فيها .

حينئذ لم يكن لدى أى شك – إن كان ساورنى شك ذات مرة – فى أن القديس كان هو . بدون أن يفطن الى الحقيقة ، ومن خلال جسد ابنته الطاهر ، كان قد قضى اثنين وعشرين عاما يكافح فى حياته من أجل قضية مشروعة ، إعلان قداسته هو .

أغسطس ١٩٨١

الحكاية الثالثة

طائرة الجمال النائم

حسناء ، دمثة ، بشرة بضة بلون الخبز ، عينان بلون الجوز الأخضر ، شعر أملس وفاحم وطويل يصل حتى ظهرها . تلفها هالة من القدم قد تكون من إندونيسيا أو من الأنديز ، وتنم ملابسها عن ذوق راق : سترة من جلد الوشق ، قميص من الحرير الطبيعي نقشت عليه زهور هادئة ، بنطلون من الكتان الخشن، حذاء دقيق بلون البوغنفيلية « هذه أجمل امرأة رأيتها في حياتي » ، هكذا فكرت حينما رأيتها تمر بخطوها الواسع الصامت كأنها لبؤة بينما كنت أقف في طابور المسافرين إلى نيويورك في مطار شارل ديجول بباريس . كان ظهوراً خارقاً للعادة دام لحظة واحدة واختفى في زحمة البهو .

كانت الساعة التاسعة صباحاً وكان الجليد ما زال يسقط منذ الليلة السابقة ، والمرور أشد كثافة في شوارع المدينة وأشد بطئا في الطريق العام ، فاصطفت الشاحنات على حافتي الطريق والسيارات على الجليد ينبعث منها الدخان . أما في بهو المطار فكان الجو لا يزال ربيعيا .

- كنت أقف في الطابور خلف عجوز هولندية تأخرت نحو الساعة تناقش أمر وزن حقائبها الإحدى عشرة . وكنت قد بدأت أشعر بالملل حين شاهدت ذلك الظهور الفجائي الذي أفقدني أنفاسي ، لذا لم أدر كيف انتهى الشجار حتى أنزلتني الموظفة من السماء تؤنبني لشرودي .

سألتها كالمعتذر إن كانت تؤمن بالحب من أول نظرة ؟

قالت :« أجل ، بالطبع .فالحب المستحيل هو النوع الآخر . » ثبتت بصرها في شاشة الحاسب وسألتني أى مقعد أفضل : للمدخنين أم لغير المدخنين ؟ أجبتها عن قصد :

- يستوى لدى الأمر طالما لم يكن إلى جانب الإحدى عشرة حقيبة .

شكرتني بابتسامة تجارية دون أن تحول نظرها عن الشاشة الفوسفورية و قالت :

- اختر رقماً : ثلاثة أم أربعة أم سبعة ؟

- أربعة !

علا ابتسامتها بريق المنتصر ، قالت :

- خلال خمس عشرة سنة عملت فيها هنا ، أنت أول من لا يختار رقم سبعة .

سجلت في البطاقة رقم المقعد وسلمتها لي مع بقية الأوراق وهي ترمقني للمرة الأولى بعينين بلون العنب وجدت فيهما عزائي بينما عدت أفتش عن الحسناء . حينئذ فقط نبهتني إلى أن المطار قد أغلق في التو وأن جميع الرحلات تأجلت .

- إلى متى ؟

قالت باسمة :

- إلى أن يشاء الله ! أعلن الراديو هذا الصباح أنها ستكون أشد عاصفة ثلجية هذا العام .

أخطأتُ : كانت أشد عاصفة ثلجية هذا القرن . بيد أنه فى صالة انتظار الدرجة الأولى كان الربيع حقيقياً فالزهور طبيعية وحتى الموسيقى المعلبة بدت سامية ومريحة كما أراد مبدعوها . جال بخاطرى بغتة أن ذلك المكان هو الملجأ الأمثل للحسناء . بحثت عنها فى القاعات الأخرى ، وارتعدت لجرأتى . لكن أغلبية المسافرين كانوا رجالاً من الواقع يقرأون صحفاً بالإنجليزية بينما كانت زوجاتهم يفكرن فى آخرين ويتأملن الطائرات على الجليد عبر الشرفات الزجاجية الضخمة ، يتأملن المصانع المتجمدة ومزارع روازى الشاسعة بعد منتصف النهار . لم تكن ثمة مساحة شاغرة وأصبح الحر خانقاً فآثرت الفرار كى أتنفس .

فى الخارج ، وجدت منظراً مخيفاً . اكتظت قاعات الانتظار بأناس من كل نوع ، كانوا يعسكرون فى الممرات الخانقة وفى السلالم ، أو يستلقون على الأرض بصحبة حيواناتهم وأطفالهم وأمتعتهم فقد انقطع الاتصال بالمدينة أيضاً ولاح قصر البلاستيك الشفاف ككبسولة فضائية جنحت فى الجليد . لم أستطع تجنب فكرة أن تكون الحسناء أيضاً بين تلك الجموع الأليفة وشجعنى هذا الوهم على الانتظار .

فى ساعة الغداء كنا قد تمثلنا موقفنا كغرقى . وقفت طوابير لا تنتهى أمام المطاعم السبعة والكافيتريات والحانات المكتظة ، والتى اضطرت إلى إغلاق أبوابها فى أقل من ثلاث ساعات بعد أن نفد الطعام والشراب .

وأجهش الأطفال - الذين بدوا لبرهة كأنهم كل أطفال اليابسة - بالبكاء معاً وأخذت تتصاعد من الجمع رائحة قطيع . كانت ساعة الغرائز . وكل ما تمكنت من تناوله ، وسط ذلك السباق المحموم ، كان آخر كأسين من الآيس كريم فى محل للأطفال . تناولتهما على مهل على طاولة المحل ، بينما كان النُدُل

يضعون الكراسي فوق الموائد الشاغرة كنت أطالع نفسي في مرآة الحائط وبيدى آخر كوب من الكرتون وآخر ملعقة من الكرتون ، وأفكر في الحسناء .

أقلعت طائرة نيويورك ، المحدد لها الحادية عشرة صباحاً ، في الثامنة مساء . عندما تمكنت ، في النهاية ، من صعود الطائرة ، كان ركاب الدرجة الأولى قد شغلوا مقاعدهم وقادتني مضيفة إلى مقعدي . انحبست أنفاسي . في المقعد المجاور ، إلى جانب النافذة ، كانت الحسناء تحتل المساحة المخصصة لها بإتقان المسافرين ذوي الخبرة . فكرت :« لو أنني كتبت ذلك ذات مرة لما صدقني أحد » . حاولت إلقاء تحية خافتة لم تسمعها .

تهيأت في جلستها كأنها ستقيم لعدة أعوام ، بعد أن وضعت كل شيء في مكانه وفي نظام حتى أصبح المكان معداً كمنزل نموذجي كل شيء فيه في متناول اليد . وبينما هي تفعل ذلك ، حمل إلينا رئيس المضيفين الشمبانيا تحية لنا . أخذت كأساً كي أقدمها لها ولكنني تراجعت في اللحظة المناسبة لأنها أرادت كوب ماء فقط ، وطلبت من رئيس المضيفين ، بفرنسية مستغلقة على الفهم أولاً ثم بإنجليزية أوضح قليلاً ، ألا يوقظها لأي سبب طوال الرحلة. كان صوتها الأجش والفاتر يحمل في طياته حزناً شرقياً .

عندما حملوا الماء إليها ، فتحت فوق ركبتيها علبة زينة ذات زوايا نحاسية ، كصندوق جدتي ، وأخرجت قرصين ذهبيين من جراب به أقراص مختلفة الألوان . كانت تفعل كل شيء بطريقة نموذجية وفي أناة كأنما لا يوجد ثمة شيء لم يعمل حسابه منذ أن ولدت . وأخيراً ، أنزلت ستارة النافذة وبسطت مقعدها إلى أقصى حد وتغطت بالبطانية حتى خاصرتها دون أن تخلع حذاءها، ووضعت عصابة على عينيها واستلقت على جانبها وقد استدبرتني ، وراحت في

نوم بلا انقطاع ، بلا تنهد ، دون أن تتململ في وضعها خلال الثماني ساعات والاثنتي عشرة دقيقة التي دامتها الرحلة حتى نيويورك .

كانت رحلة مكثفة . اعتقدت دائماً أن لا شيء أجمل في الطبيعة من امرأة جميلة ، ولم أستطع أن أفر للحظة واحدة من سحر تلك المخلوقة الخرافية الراقدة إلى جواري .

اختفى رئيس الخدمة بمجرد إقلاعنا وحلت محله مضيفة « ديكارتية » أرادت إيقاظ الحسناء لتقدم لها علبة الزينة وسماعات الموسيقى . رددت على مسامعها ما قالته لرئيس المضيفين لكنها أصرت على ذلك كي تتأكد بنفسها من أن الحسناء النائمة لن تتناول عشاءها أيضاً . اضطر رئيسها إلى تأكيد ذلك لها ومع هذا عنفتني لأن الحسناء لم تعلق في عنقها بطاقة « عدم الإزعاج » .

تناولت عشائي وحيداً قائلاً لنفسي وفي صمت ما وددت قوله لها لو كانت مستيقظة . كان نومها هادئاً فأثار قلقي في لحظة ما ألا يكون القرصان اللذان تناولتهما للنوم بل للموت . قبل كل حسوة كنت أرفع كأسي وأشرب نخبها :

- في صحتك ، أيتها الجميلة !

بعد العشاء ، أطفئت الأنوار وعرض فيلم لم يره أحد . وأمسينا وحيدين في حلكة العالم . هدأت أكبر عاصفة ثلجية في هذا القرن وتراء ى ليل الأطلنطي رحيباً وصافياً ، ولاحت الطائرة ساكنة بين النجوم . حينئذ تأملتها شبراً شبراً خلال عدة ساعات وكانت علامة الحياة الوحيدة التي استطعت ملاحظتها هي ظلال الأحلام على جبينها كظلال السحب في الماء .

كانت تلبس سلسلة ذهبية دقيقة لا تكاد ترى فوق بشرتها الذهبية ، وكانت أذناها رائعتين بلا ثقوب ، وأظافرها وردية نضرة ، وتلبس خاتماً أملس في يدها اليسرى . وبما أنها بدت لا تتعدى العشرين من عمرها ، قلت لنفسي

أعزيها إنه لم يكن خاتم زواج بل خاتم خطوبة عارضة . طفقت أفكر وأنا فوق قمة زبد الشمبانيا مردداً شعر خيراردو دييجو العظيم :« وإذ أدرك أنك تنامين ، أنت ، واثقة ، آمنة ، مجرى وفياً للهجر ، خطاً محضاً ، قريبة جداً من ذراعي الموثقتين » .

بسطت مقعدى فى نفس ارتفاع مقعدها واستلقينا أقرب من زوجين على فراشهما . كان مناخ تنفسها هو نفس مناخ صوتها ، وكان جسدها يتنفس عبقاً خافتا لا يصدر إلا عن حسن كحسنها . لم أكن أصدق نفسى : فى فصل الربيع السابق كنت قد قرأت رواية جميلة لـ « يا سونارى كواباتا » عن عجائز « كيوتو » من البرجوازيين الذين كانوا يدفعون أموالاً طائلة لقضاء الليل فى تأمل أجمل بنات المدينة ، عاريات ومخدرات ، بينما هم يحتضرون حباً على نفس الفراش . لم يكن بوسعهم إيقاظهن أو لمسهن ، بل إنهم لا يحاولون ذلك لأن خلاصة المتعة هى رؤيتهن نائمات . تلك الليلة ، بينما كنت أسهر على نوم الحسناء ، لم أفهم فقط ذلك السمو الشيخوخى بل عشته فى أوجه .

قلت لنفسى وقد تعكر كبريائى بفعل الشمبانيا :

ـ من كان يصدق هذا : أنا ، عجوز يابانى فى هذا العمر !

أعتقد أننى غفوت عدة ساعات وقد غلبتنى الشمبانيا ونيران الفيلم الصامتة واستيقظت على صداع برأسى . ذهبت إلى دورة المياه ، وعلى مسافة صفين ، انفرطت عجوز الإحدى عشرة حقيبة فى رقادها على نحو كريه . بدت كميت أهمل فى ساحة المعركة . على الأرض ، فى وسط الممر ، استقرت نظارتها المشدودة إلى عقد ذى حبات ملونة . استمتعت لبرهة بسعادة شريرة ولم ألتقطها .

بعد أن تخلصت من آثار الشمبانيا باغت نفسى فى المرآة ، مهيناً ، قبيحاً ، وراعنى أن تكون لواعج الحب بتلك الفظاعة . هوت الطائرة فجأة ثم

استعادت توازنها بقدر استطاعتها وواصلت طيرانها ركضا . أضاءت لمبة الإنذار بالعودة إلى المقاعد . خرجت مهرولاً متوهماً أن المقادير وحدها بوسعها إيقاظ الحسناء ، متوهماً أنها قد تلجأ إلى ذراعى هرباً من رعبها . كنت على وشك أن أطأ نظارة الهو لندية ، كنت سأسعد لذلك . ولكننى تراجعت والتقطها من الأرض ووضعتها فى حجرها بامتنان مفاجيء لأنها لم تختر قبلى المقعد رقم أربعة .

كان نوم الحسناء لا يقهر . عندما استقرت الطائرة ، اضطررت إلى مقاومة إغراء هزها بأى عذر لأن ما كان يشغلنى فى آخر ساعة من ساعات الرحلة هو أن أراها مستيقظة ، حتى وإن غضبت ، كى أستعيد حريتى وربما شبابى . ولكننى لم أجرؤ على ذلك . قلت لنفسى : « اللعنة ، لم لم أولد فى برج الثور ؟ » .

صحت فى لحظة إضاءة إشارات الهبوط ، وكانت بهية نضرة كأنما نامت بين بستان من الورود . عندئذ تنبهت إلى أن من يجلسون فى المقعد المجاور بالطائرات ، مثلهم فى ذلك مثل الزيجات القديمة ، لا يتبادلون تحية الصباح عندما يستيقظون من نومهم . هكذا كانت هى أيضاً . خلعت عصابتها وفتحت عينين مشرقتين وعدلت من وضع مقعدها وأزاحت البطانية ونفضت شعرها الذى استعاد رونقه بثقله الطبيعى وحده . وعادت فوضعت العلبة على ركبتيها وتزينت فى عجلة وبساطة ولم تنته إلا حين فتح باب الطائرة .

حينئذ ارتدت سترتها ومرت فوقى تقريباً معتذرة اعتذاراً متعارفاً عليه بإسبانية أمريكية نقية وذهبت دون أن تودعنى ، دون أن تشكرنى على ما تكبدته من أجل ليلتنا السعيدة ، واختفت حتى شمس النهار فى غابة نيويورك .

يونيه ١٩٨٢

الحكاية الرابعة

أؤجر الأحلام

في التاسعة صباحاً ، بينما كنا نتناول فطورنا في شرفة « هافانا ريفييرا »، جرفت موجة عاتية ، في وضح النهار ، عدداً من السيارات المارة بطريق الكورنيش وأخرى كانت تنتظر إلى جوار الرصيف وانحشرت إحداها في أحد جوانب الفندق . كان لها دوي الديناميت وبث الذعر في طوابق البناية العشرين وهشمت زجاج البهو وطار عدد من السياح في الهواء مع الأثاث المتناثر بقاعة الانتظار وجرح بعضهم بشظايا الزجاج . ويبدو أنها كانت موجة رهيبة ، فبين حاجز الكورنيش والفندق شارع واسع في اتجاهين ، أي أنها قفزت فوقه وكانت من القوة بحيث حطمت زجاج الفندق .

قام متطوعون كوبيون بهيجون بإزالة الأنقاض ، يعاونهم رجال المطافئ ، في أقل من ست ساعات ، وسُد باب الفندق المطل على البحر وفتح آخر وعاد كل شئ إلى طبيعته .

في ذلك الصباح ، لم يعتن أحد بأمر السيارة المحشورة في الجدار على اعتبار أنها كانت إحدى تلك السيارات التي تنتظر إلى جانب الرصيف . وحين سحبتها الرافعة من فتحة الجدار ، عثر فيها على جثة امرأة على مقعد القيادة ، شدت إلى حزام الأمان . كانت الصدمة مروعة فلم تدع لها عظمة واحدة من عظامها سليمة . وتهشم وجهها وحذاؤها وتحولت ملابسها إلى خرق بالية . كانت تلبس خاتماً ذهبياً على شكل ثعبان عيناه من الزمرد . وأعلنت الشرطة أنها مديرة منزل سفير البرتغال الجديد . وبالفعل كانت قد قدمت برفقة عائلته إلى

هافانا منذ خمسة عشر يوماً ، وخرجت فى ذلك الصباح إلى السوق تقود سيارة جديدة .

لم يوح لى اسمها بشئ عندما قرأت النبأ فى الصحف ولكن الخاتم الذى له شكل ثعبان عيناه من الزمرد أثار فضولى . ومع هذا لم أتمكن من معرفة فى أى إصبع كانت تضعه ؟

كانت معلومة قاطعة ، لأننى كنت أخشى أن تكون امرأة لا أنساها ، لم أقف قط على حقيقة اسمها ، كانت تلبس خاتماً مشابهاً فى سبابتها اليمنى وهو ما كان أكثر غرابة خاصة فى ذلك الوقت . عرفتها قبل أربعة وثلاثين عاماً ، فى فيينا ، فى حانة يرتادها الطلبة اللاتينيون ، بينما كنت أتناول السجق والبطاطس المسلوقة وأحتسى الجعة .

كنت قد وصلت لتوى من روما ، فى ذلك اليوم ، ومازلت أتذكر أول انطباع لى عنها : صدرها الرائع كصدر سوبرانو وياقة معطفها من ذيل الثعلب الحائل وخاتمها المصرى على شكل ثعبان . من بين الجلوس على المائدة الخشبية الطويلة ، خلتها الوحيدة من أصل نمساوى بسبب إسبانيتها البدائية التى كانت تتحدثها دون أن تلتقط أنفاسها ، وبلكنة بائعة خردوات .

كنت مخطئا ، فقد ولدت فى كولومبيا ورحلت إلى النمسا بين الحربين ، وهى طفلة تقريباً ، لتدرس الموسيقى والغناء . عندما التقيت بها لأول مرة ، كانت فى حدود الثلاثين عاماً ، بل لاحت لى أكبر سناً فيبدو أنها لم تكن جميلة ثم اعترتها الشيخوخة قبل الموعد . ومع هذا كانت إنسانياً ساحرة وكانت فى نفس الوقت مخيفة كقليل من البشر .

كانت فيينا ، فى ذلك العهد ، لاتزال تحتفظ بطابعها كعاصمة إمبراطورية قديمة ، وكان موقعها الجغرافى بين عالمين متنافرين بعد الحرب العالمية الثانية قد حولها إلى جنة السوق السوداء والتجسس العالمى . ولم يكن هناك مناخ خير من

مناخ فيينا ليناسب امرأة هاربة من بلدى مازالت تأكل فى حانة الطلبة القريبة بلا مبرر آخر سوى وفائها لأصلها فقد كان لديها ما يكفى لشراء الحانة بمن فيها .

لم تكشف قط عن اسمها الحقيقي ، وكنا نعرفها دائماً بذلك الاسم الألماني الذى يحتمل الخطأ والذى أطلقه عليها الطلبة اللاتينيون فى فيينا : فراو فريدا . ما أن قدمونى لها حتى وقعت فى خطأ موفق وسألتها ماذا فعلت كى تفرض نفسها على ذلك العالم البعيد ، والمختلف عن بلدتها « كينديو » ذات الرياح الصخرية فأجابتنى مباغتة :

– أؤجر الأحلام .

تلك فى الحقيقة كانت مهنتها الوحيدة . كانت ثالثة أحد عشر ولداً أنجبهم بقال ناجح بـ « كالداس » القديمة ، ومنذ تعلمت الكلام استحدثت فى بيتها عادة قص الأحلام قبل الإفطار ، وهى الساعة التى تحتفظ فيها موهبتها فى التنبؤ بنقائها . فى السابعة من عمرها رأت فيما يرى النائم أن سيلاً يجرف أحد إخوتها ، فحرّمت الأم على طفلها ، لأسباب خرافية محضة ، أن يفعل أشد الأشياء حباً إلى نفسه وهو الاستحمام فى النهر . كانت لفراو فريدا طريقتها الخاصة فى التنبؤ . قالت :

– ما يعنيه هذا الحلم ليس الغرق ، بل إن عليه ألا يقرب الحلوى .

كان مجرد النطق بهذا التفسير مشيناً ، خاصةً إذا تعلق الأمر بطفل فى الخامسة من عمره لا يمكنه العيش دون حلوى يوم الأحد . أما الأم التى كانت مقتنعة بمواهب ابنتها فى العرافة فقد جعلته يحترم ذلك التحذير بيد من حديد . ولكنه فى أول مرة أغفلته الأم فيها غصّ بكرية من الكراميل أكلها خفية ولم تُجد أية وسيلة لإنقاذه .

لم يعنّ لفراو فريدا أن تستغل تلك الملكة كحرفة ، حتى أطبقت الحياة على عنقها في شتاء فيينا القارس . عندئذ طرقت باب أول منزل راقها لتطلب عملاً ، وحين سئلت عما تجيده لم تقل سوى الحقيقة : « أحلم » . اكتفت بشرح وجيز لصاحبة المنزل فقبلتها بمرتب لايكاد يفي بأبسط احتياجاتها لكنه يشمل أيضاً غرفة نوم جيدة وثلاث وجبات يومياً ، خاصة وجبة الإفطار ، موعد جلوس العائلة لقراءة الطالع اليومي لكل أفرادها : الأب ، رجل رقيق من أصحاب الأملاك . والأم ، امرأة بهيجة لها ولع بموسيقى الحجرة الرومانسية ، وطفلين في الحادية عشرة والتاسعة من العمر . كانوا جميعاً ميالين إلى التدين وينزعون إلى الاعتقاد في الخرافات القديمة . لذا استقبلوا فراو فريدا بغبطة وبالتزام وحيد من جانبها هو : التنبؤ بمصير العائلة اليومي عن طريق الأحلام .

أتقنت عملها ولمدة طويلة ، خاصة في سنوات الحرب ، حين كان الواقع أنكى من الكوابيس . كانت هي وحدها التي تقرر ، ساعة الإفطار ، ما ينبغي أن يفعله كل واحد منهم في كل يوم وكيف عليه أن يفعله ، حتى أضحت تنبؤاتها صاحبة الكلمة العليا في البيت . كانت سيطرتها على الأسرة مطلقة ، حتى فعل التنهد الخافت كان يخضع لأمر منها .

حينما كنت بفيينا ، كان رب البيت قد توفي حديثاً وكان من دماثة الخلق بحيث ترك لها جزءاً من ممتلكاته شريطة أن تواصل التنبؤ للأسرة إلى أن تنتهي أحلامها .

أقمت في فيينا لأكثر من شهر ، أشاطر الطلبة شظف العيش وأنتظر مالاً لم يأت قط . وكانت زيارات فراو فريدا غير المنتظرة والسخية للحانة بمثابة الأعياد في حدود فاقتنا .

في ليلة من تلك الليالي ، وفي نشوة الجعة ، قالت لي في أذني باقتناع لا يسمح بأية مضيعة للوقت :

– جئت فقط لأقول لك إننى رأيتك بالأمس فى منامى . يجب أن ترحل فى الحال وألا تعود إلى فيينا قبل خمس سنوات .

كان اقتناعها حقيقيا فأخذت فى تلك الليلة ذاتها آخر قطار إلى روما . وراعنى ما قالته فاعتبرت نفسى منذ ذلك الحين قد نجوت من كارثة لم أعلمها قط ولم أعد إلى فيينا حتى الآن .

قبل حادث هافانا ، رأيت فراو فريدا فى برشلونة على نحو غير متوقع ومصادفة تراءت لى غامضة . كان نفس اليوم الذى وطأ فيه بابلو نيرودا أرض إسبانيا لأول مرة بعد الحرب الأهلية ، عندما توقف بها فى رحلته البحرية الطويلة إلى فالبرئيسو . فى الصباح خرجنا معه فى رحلة قنص بالمكتبات التى تبيع الكتب القديمة . واشترى من أحد الأكشاك كتاباً قديماً بلا غلاف وذهب لونه ، ودفع ثمناً له ماقد يساوى مرتبه فى شهرين بقنصلية رانجون . كان يتحرك بين الناس كفيل كسيح وباهتمام طفولى بالآلية الخاصة لكل الأشياء ، فقد كان يرى العالم كعلبة كبيرة بزنبرك تخترع بها الحياة .

لم أعرف فى حياتى شخصاً غيره أقرب شبهاً بفكرتى عن صورة البابوات فى عصر النهضة : نهم ومهذب . كان يرأس المائدة دائماً حتى ضد رغبته . وكانت ماتيلدى زوجته تضع له مئزراً فى رقبته أقرب إلى فوطة الحلاق منه إلى منديل مائدة ، ولكنها الطريقة الوحيدة لتجنب أن يستحم فى الصلصة .

فى ذلك اليوم ، فى « كارفاييراس » ، كان نموذجياً . أكل ثلاث إستاكوزات كاملة بعد أن قطعها بمهارة جراح فى نفس الوقت الذى كان يلتهم فيه أطباق الجميع بعينيه ويتناول شيئاً من طبق كل منا بمتعة أصابتنا جميعاً بعدوى النهم .

فى أثناء ذلك ، وكما يفعل الفرنسيون ، لم يتحدث إلا عن روائع المطبخ ، وخاصة عن حيوانات شيلى البحرية التى تنتمى إلى عصر ماقبل التاريخ وكان

هو يحملها فى قلبه . بغتةً ، توقف عن الأكل وشحذ هوائياته كأنه سرطان بحر وقال لى فى صوت خفيض جداً :

– ثمة شخص خلفى لا يكف عن النظر إلىّ .

نظرت من فوق كتفه ، وكان على صواب . وراء ظهره ، على مسافة ثلاث موائد، كانت هناك امرأة رابطة الجاش ، بقبعة لبادية قديمة ولفا ع بلون البنفسج، تمضغ طعامها فى رفق وعيناها ترمقانه . عرفتها فى الحال . كانت عجوزاً وبدينة لكنها كانت هى ، تلبس خاتم الثعبان فى سبابتها .

كانت تسافر من نابولى على نفس مركب أسرة نيرودا ولكنهم لم يلتقوا على ظهر المركب . دعوناها لتناول القهوة على مائدتنا وقدتها إلى الحديث عن أحلامها كى أفاجئ الشاعر . لم يولها اهتماماً ، فقد طرح من البداية أنه لا يعتقد فى تنبؤات الأحلام . قال :

– الشعر وحده يملك البصيرة ! .

بعد الغداء ، فى نزهتنا الواجبة بشارع « لاس رامبلاس » ، تأخرت عن قصد لأتحدث مع فراو فريدا ولنجتر ذكرياتنا بعيداً عن آذان الآخرين . قصت على أنها باعت ممتلكاتها فى النمسا وتحيا حياة عزلة فى بورتو ، بالبرتغال ، فى بيت وصفته بأنه قصر زائف فوق أكمة يمكنها منه رؤية كل المحيط حتى أمريكا . وظهر واضحاً من حديثها أنها ، حلما بعد حلم ، انتهت إلى السيطرة على ثروات كل من عملت لديهم من أهل فيينا . غير أننى لم أدهش لذلك لأننى اعتقدت دائماً أن أحلامها لم تكن سوى حيلة للرزق . وقلت لها ذلك .

أطلقت ضحكة لا تقاوم . قالت : « مازلت جريئاً كعهدى بك » . لم تضف إلى ما قالته شيئاً لأن بقية المجموعة كانت قد توقفت تنتظر أن يكف بابلو نيرودا

عن حديثه بلهجته الشيلية مع ببغاوات محل الطيور ، وعندما استأنفنا حديثنا ، كانت فراو فريدا قد طرقت موضوعاً آخر ، قالت :

– بهذه المناسبة ، يمكنك الآن العودة إلى فيينا .

حينئذ فقط انتبهت إلى أن ثلاثة عشــر عاماً قد مضت منذ تعارفنا . قــلت لهـا :

– حتى لو كانت أحلامك زائفة ، لن أعود إليها قط ، من باب الحيطة !

افترقنا عنها في الثالثة لنصاحب نيرودا في قيلولته المقدسة . فعل ذلك في منزلنا ، بعد ترتيبات صارمة تذكر على نحو ما بطقوس الشاى في اليابان . كان لابد من فتح نوافذ وإغلاق أخرى للحصول على درجة حرارة محددة وعلى نوع معين من الضوء في اتجاه محدد ، وفي هدوء تام . نعس نيرودا في الحال ثم استيقظ كالأطفال بعد عشر دقائق ، ودون أن نتوقع ذلك . خرج إلى الصالة مستعيداً حيويته وقد طبعت آثار الوسادة على صدغيه . قال :

– حلمت بامرأة تحلم بى !

أرادت ماتيلدى أن يقص عليها الحلم . قال هو :؟

::– حلمت أنها تراني في منامها .

قلت له :

– هذا من وحى بورخِس !

نظر إلى في إحباط :

– هل كتب هذا من قبل ؟

– إن لم يكن كتبه فسوف يكتبه يوماً ما . وستكون إحدى متاهاته .

ما أن صعد إلى ظهر المركب ، في السادسة مساء ، حتى ودعنا وجلس على مائدة منعزلة وشرع في كتابة شعره الغزير بقلم الحبر الأخضر الذى يرسم

به زهوراً وأسماكاً وطيوراً فى إهداءات كتبه .

مع أول نداء للسفينة ، بحثنا عن فراو فريدا وعثرنا عليها أخيراً فى الدرجة السياحية عندما كنا على وشك الرحيل دون أن نودعها . كانت هى أيضاً قد استيقظت تواً من قيلولتها . قالت لنا :

– رأيت الشاعر فى نومى !

طلبت منها أن تقص على الحلم بعد أن راعنى ما قالت :

– حلمت أنه رآنى فى المنام .

أربكها وجهى المذعور ، فقالت لى :

– ماذا ؟ أحياناً ، ومن بين كل هذه الأحلام ، يتسلل أحدها لاتكون له علاقة بالواقع .

لم أرها بعد ذلك ولم أعاود مساءلة نفسى بشأنها حتى علمت ما كان من أمر الخاتم – الثعبان الذى كانت تلبسه المرأة التى قضت نحبها عند غرق فندق ريفييرا . لذا لم أستطع مقاومة إغراء سؤال سفير البرتغال عنها عندما التقينا بعد ذلك بعدة شهور فى حفل استقبال دبلوماسى . حدثنى السفير عنها بحمية متأججة وبإعجاب شديد . قال لى : « لا تتخيل كم كانت رائعة . ما كنت لتحتمل إغراء كتابة قصة عنها » . وواصل حديثه بنفس الحماس وبتفصيلات مدهشة لكن بلا أى خيط يسمح لى بأن أصل إلى نتيجة محددة . وأخيراً ، سألته :

– ماذا كانت تفعل بالتحديد ؟

فأجابنى بشئ من الخيبة :

– أبداً .. كانت تحلم !

مارس ١٩٨٠

الحكاية الخامسة

جئت فقط
لأتحـــدث فى التليفون

في مساء أحد أيام الربيع الممطرة ، بينما كانت تسافر وحدها في اتجاه برشلونة ، تعطلت سيارتها المؤجرة التي كانت تقودها بصحراء مونجروس . وماريادى لا لوث ثيرفانتس مكسيكية في السابعة والعشرين من عمرها ، جميلة وجادة ، نالت قبل ذلك بسنوات بعض شهرة كممثلة منوعات ، وزوجة مشعوذ صالونات كانت على موعد معه في ذلك اليوم عند عودتها من زيارة بعض أقاربها في سرقسطة .

بعد أن ظلت نحو الساعة تشير يائسة إلى السيارات والشاحنات المسرعة تحت المطر ، أشفق عليها سائق حافلة متهالكة . ولكنه أوضح لها جيداً أنه لن يذهب بعيداً فأجابته ماريا :

– لا يهم ، فكل ما أحتاجه تليفون .

كان هذا ما تريده بالفعل ، وكانت تحتاجه فقط لتخبر زوجها بأنها لن تصل قبل السابعة مساء . كانت تبدو كعصفور مبتل ، وترتدى معطف تلميذة وحذاء بحر في شهر أبريل ، ومن فرط توترها بسبب العطل نسيت أن تحمل معها مفاتيح السيارة .

أعطتها امرأة ذات مظهر عسكري وأسلوب دمث معاً منشفة وبطانية وأفسحت لها مكاناً إلى جوارها . جلست ماريا بعد أن جففت نفسها على قدر استطاعتها والتحفت البطانية وحاولت إشعال سيجارة بأعواد الثقاب المبتلة . أشعلت لها جارتها ثقاباً وطلبت منها سيجارة من البقية القليلة الجافة . بينما

كانتا تدخنان ، استسلمت ماريا لرغبتها في البكاء وسمع لنشيجها رنين أعلى من صوت المطر ومن طرقعة الحافلة . قاطعتها المرأة وسبابتها على شفتيها . همهمت:

– إنهن نائمات .

نظرت ماريا من فوق كتفها فوجدت الحافلة مكتظة بنساء من أعمار غير محددة وطبقات متباينة ينعسن ملتحفات بطانيات مثل بطانيتها . أصابتها عدوى سكينتهن فتقوست في مقعدها واستسلمت لوشيش المطر . حين استيقظت كان الظلام قد حل وذاب المطر في برودة وادعة . لم تكن لديها أية فكرة عن الوقت الذي استغرقته في النوم أو المكان الذي انتهت إليه . كانت جارتها في حالة ترقب عندما سألتها :

– أين نحن الآن ؟

– لقد وصلنا .

كانت الحافلة تلج فناء من الحجارة لمبنى ضخم وقاتم لاح كدير عظيم وسط غابة من الأشجار الباسقة . بقيت الراكبات بلا حراك وقد انعكس عليهن ضوء مصباح الفناء الخافت حتى أمرتهن المرأة ذات المظهر العسكري بالنزول من خلال مجموعة من الأوامر البديهية كأنهن أطفال . كن كلهن مسنات وكن يتحركن في تمهل شديد كأنهن صور في حلم . فكرت ماريا ، آخرهن في النزول ، في أنهن قد يكن راهبات . ولكنها أقلعت عن هذه الفكرة عندما رأت عدة سيدات بزي موحد يستقبلنهن عند باب الحافلة ويغطين رؤوسهن بالبطاطين حتى لا تبتل أجسادهن ويضعنهن في صف واحد ويدرنهن دون أن يتحدثن إليهن بتصفيق إيقاعي وحازم . بعد أن ودعت جارتها في المقعد أرادت ماريا أن تعيد إليها البطانية ولكن الأخرى قالت لها أن تغطي رأسها حتى تعبر الفناء وأن تعيدها إلى حارس البوابة . سألتها ماريا :

– هل ثمة تليفون ؟

– بالطبع . هناك سيرشدونك .

طلبت من ماريا سيجارة أخرى فأعطتها بقية العلبة المبتلة وقالت لها : « ستجف في الطريق » . أومأت المرأة لها مودعة على سلم الحافلة وصاحت : « حظاً موفقاً » . وتحركت الحافلة فلم تتفوه بشئ آخر .

شرعت ماريا تجرى نحو البناية . حاولت إحدى الحارسات أن تستوقفها بضربية كف قوية ، بل لجأت إلى صيحة قاطعة : « قفى ، قلت لك ! » نظرت ماريا إليها من تحت البطانية فرأت عينين جليديتين وسبابة لا مراء فيها تشير إلى الصف ، أطاعتها . وفي دهليز البناية ، انفصلت عن الجمع وسألت الحارس أين بوسعها أن تجد التليفون ؟ أعادتها إحدى الحارسات إلى الصف بعد أن ربتت على ظهرها وقالت لها في أسلوب عذب :

– من هنا ، يا جميلتى ، ثمة هاتف هنا .

مكثت ماريا مع النساء الأخريات في ممر مظلم ودخلت في نهاية الأمر عنبر النوم حيث حملت الحارسات الأغطية وشرعن في توزيع الأسرّة . قامت امرأة مختلفة الهيئة – لاحت لماريا أكثر آدمية وأعلى مرتبة – بتفقد الصف وأخذت تقارن قائمة بالأسماء التي تحملها القادمات مكتوبة على قصاصة من الكرتون خيطت في صدورهن . وعندما وصلت أمام ماريا فوجئت بأنها لا تحمل ما يكشف عن هويتها . فقالت لها ماريا :

– إنني جئت فقط لأتحدث في التليفون .

وشرحت لها في عجلة أن سيارتها تعطلت في الطريق وأن زوجها الذي يعمل ساحراً في الحفلات ينتظرها في برشلونة لتأدية ثلاثة التزامات حتى

منتصف الليل ، وكانت تريد أن تبلغه بأنها لن تصل فى الوقت المحدد لتصاحبه . كان من المقرر أن يخرج هو من بيته خلال عشر دقائق وكانت تخشى أن يلغى كل شئ بسبب تأخرها . أظهرت الحارسة الاستماع لها فى اهتمام . سألتها :

- ما اسمك ؟

ذكرت لها ماريا اسمها وتنهدت بارتياح ، لكن المرأة لم تعثر لاسمها على أثر بعد أن راجعت القائمة عدة مرات . سألت حارسة أخرى فى قلق فهزت الأخرى كتفيها دون أن تجد ماتقوله . قالت ماريا :

- جئت فقط لأتحدث فى التليفون .

قالت لها المشرفة وهى تقودها إلى سريرها فى عذوبة شديدة لايمكن أن تكون حقيقية :

- أجل يا جميلتى ، كونى مطيعة وغداً بوسعك التحدث بالتليفون إلى من تريدين . ليس فى إمكانك هذا الآن ، ليكن غداً .

شئ ما جال فى تلك اللحظة بذهن ماريا جعلها تكتشف لماذا كانت نساء الحافلة يتحركن كأنهن فى قاع حوض أسماك . كن ، فى الواقع ، هادئات بتأثير مخدر ، وذلك القصر المعتم بجدره الحجرية السميكة وأدراجه الباردة كان فى الحقيقة مستشفى للأمراض العقلية .

فرت مذعورة من العنبر وقبل أن تصل إلى البوابة أمسكت بها قبضة حارسة ضخمة الجثة ترتدى زى ميكانيكى ، وشلت حركتها بلىّ ذراعها إلى الخلف . نظرت ماريا إليها شزرا وقد أصابها الذعر بالشلل التام . قالت :

- أقسم بالله وأقسم بأمى تحت التراب أننى جئت فقط لأتحدث بالتليفون .

كفتها رؤية وجه الحارسة لتتيقن من أنه لن يجدي أي توسل إزاء تلك المعتوهة في زيها الغريب والتي كانوا يسمونها « هرقلينا » لقوتها البدنية الرهيبة . وكانت المكلفة بالأمور المعقدة ، وكانت نزيلتان قد قضيتا نحبهما مخنوقتين بذراعها ، ذراع دب قطبي مدرب على فن القتل الخطأ . برئت ساحتها في القضية الأولى بإثبات أن الوفاة كانت نتيجة حادث عارض .أما القضية الثانية فلم تكن بذلك الوضوح ، ووجه إنذار إلى « هرقلينا » ولفت نظرها إلى أنه في المرة القادمة سوف يجرى معها تحقيق صارم . ويقول التفسير الشائع إن تلك النعجة الضالة المنحدرة من أصل شريف لها سجل مريب من الحوادث الغامضة في العديد من المصحات العقلية بإسبانيا .

اضطروا إلى حقن ماريا بمخدر حتى تستطيع النوم في الليلة الأولى . وقبل الفجر ، عندما أيقظتها حاجتها إلى التدخين كانت يداها وكعباها مشدودة إلى قضبان السرير ولم يستجب أحد لصراخها . في الصباح ، بينما لم يستدل زوجها على أثر لها في برشلونة ، اضطروا إلى حملها إلى عيادة المصح بعد أن وجدوها فاقدة الوعي تسبح في مستنقع من نفاياتها .

لم تدر كم مر من الوقت عندما عادت إلى وعيها بيد أنه حينئذ أضحى العالم بحيرة حب . وقف أمام سريرها شيخ ضخم له مشية دب وابتسامة مهدئة ، أعاد إليها سعادة الحياة بإيماءتين رائعتين . كان مدير المصح .

دون أن تقول له شيئاً ودون أن تحييه مجرد تحية ، طلبت منه ماريا سيجارة . فأعطاها سيجارة مشتعلة ثم أهداها العلبة كاملة تقريباً . لم تتمكن ماريا من حبس دموعها . قال لها الطبيب بصوت يبعث على الخدر :

– اغتنمي الفرصة الآن وابكي كما يعنّ لك . ليس ثمة دواء كالبكاء .

وبكت ماريا بلا حياء ، كما لم تبك من قبل مع عشاقها العارضين في

لحظات الملل بعد الحب . بينما كان يستمع إليها ، أخذ الطبيب يلامس شعرها بأنامله ، ويصلح من شأن وسادتها ، حتى تستطيع التنفس على نحو أفضل ، ويرشدها عبر متاهة ترددها ، بحكمة وعذوبة لم تحلم بهما البتة . كانت لأول مرة في عمرها تعيش معجزة أن يفهمها رجل يستمع إليها بكل روحه دون أن يفكر في مضاجعتها . بعد ما يزيد على الساعة ، وبعد أن تطهرت مما يؤلمها ، طلبت منه تصريحاً لتخابر زوجها بالهاتف .

نهض الطبيب بكل مهابة منصبه وقال مداعباً خدها أرق مداعبة استشعرتها في عمرها : « الآن ، لا ، يا مليكتي ، كل شئ في وقته المناسب » باركها مباركة أسقفية متوقفاً بالباب وقبل أن يختفي إلى الأبد ، قال لها :

- ثقي بي .

في مساء ذلك اليوم تم تسجيل ماريا تحت رقم مسلسل ، بعبارة سطحية حول لغز مجيئها ، والشكوك القائمة حول هويتها . وعلى الهامش كتب تشخيص بخط يد المدير : حالة هياج .

كما توقعت ماريا ، خرج زوجها من شقتهما المتواضعة بحي « أورتا » ، متأخراً نصف ساعة ، ليوفي بالتزاماته الثلاثة . كانت تلك أول مرة بعد عامين من الارتباط الحر الناجح لاتصل فيها في موعدها ، واعتقد هو أن تأخرها مرده الأمطار الوحشية التي هطلت على المقاطعة في نهاية ذلك الأسبوع . قبل أن يخرج ، ثبت رسالة خطية بباب الشقة بخط سيره تلك الليلة .

في أول حفلة ، تنكر جميع الأطفال في شكل حيوان الكنغر وتخلى هو عن أفضل عروضه ، عرض الأسماك الخفية ، فلم يكن بوسعه القيام به بدونها . وكان العرض الثاني في منزل عجوز في الثالثة والتسعين من عمرها ، تجلس على كرسي متحرك ، وتزهو بأنها في الثلاثين عاماً الأخيرة احتفلت بأعياد ميلادها بإحضار ساحر جديد كل سنة .

كان مهموما لتأخر ماريا ولم يستطع شحذ تركيزه فى أبسط الحيل . أما آخر التزاماته فكان عرضه الليلي اليومي فى مقهى موسيقي بشارع « لاس رامبلاس » حيث قام بألعابه بلا تألق أمام مجموعة من السياح الفرنسيين غير المقتنعين بما يرون لأنهم كانوا يرفضون الاعتقاد فى السحر .

خابر منزله بعد كل عرض وانتظر بلا أمل أن تجيبه ماريا . فى المخابرة الأخيرة ، لم يستطع كبح جماح قلقه من وقوع حادث غير سار . عند عودته إلى منزله ، فى الشاحنة الصغيرة المعدة للعروض فى الهواء الطلق ، شاهد ازدهار الربيع على نخيل شارع « جراثيا » وارتعدت فرائصه لفكرة الحياة فى المدينة بدون ماريا . وتلاشى آخر آماله عندما وجد رسالته لاتزال مثبتة بالباب . ونسى من شدة غمه أن يطعم قطه .

والآن وأنا أسجل هذه السطور ، الآن فقط أنتبه إلى أننى لم أعرف اسمه الحقيقي قط ، لأننا فى برشلونة كنا نعرفه باسمه الفنى : ساتورنو الساحر . كان رجلاً غريب الأطوار وغير اجتماعى بالمرة ، ويقابل فقره الشديد فى اللباقة والملاحة غنى ماريا الفائض عن الحد . كانت هى من يأخذ بيده فى ذلك المجتمع ذى الألغاز الكبرى ، المجتمع الذى لن تجد فيه من يفكر فى مخابرة أحد بعد منتصف الليل ليسأل عن زوجته . كان ساتورنو قد فعل ذلك مرة بعد مجيئه بوقت قصير ولم يرغب فى تذكر ماحدث .

لذا اكتفى تلك الليلة بمخابرة سرقسطة ، فأجابته جدة شبه نائمة ، بلا قلق ، بأن ماريا رحلت بعد الغداء . لم يغمض له جفن أكثر من ساعة عند الفجر .

رأى حلماً موحلاً ، رأى ماريا فى ثوب عرس ممزق ، ملطخة بالدماء فصحا مذعوراً وواثقاً بأنها هجرته مرة أخرى ، للأبد هذه المرة ، فى هذا العالم الرهيب بدونها .

كانت هي قد فعلت ذلك من قبل ثلاث مرات مع ثلاثة رجال آخرين ، بل ومعه أيضاً ، في السنوات الخمس الأخيرة . كانت قد هجرته في مدينة المكسيك بعد ستة أشهر من لقائهما ، حينما كانا يحتضران من السعادة بحب مجنون في غرفة الخدم بحي « أنثورس » . وفي إحدى المرات ، اختفت ماريا عند الفجر بعد ليلة من التجاوزات المشينة . وتركت وراءها كل ما كان يخصها حتى خاتم زواجها السابق وكذا رسالة قالت فيها إنها لن تستطيع أن تحيا بعد عذاب ذلك الحب المعتوه .

توهم ساتورنو أنها عادت إلى زوجها الأسبق وكان زميل مدرستها الثانوية تزوجته خفية قبل أن تبلغ سن الرشد ثم هجرته في نهاية عامين بلا حب . لكن الأمر لم يكن على ذلك النحو : كانت قد آبت إلى بيت أبيها . وذهب ساتورنو إلى هناك ليستعيدها مهما كلفه الأمر .

استعطفها أن تعود على أي نحو ووعدها بأشياء لن يفي بها لكنه اصطدم بإرادة لا تقهر . قالت له : « ثمة حب طويل وحب قصير . هذا كان قصيراً » . استسلم إزاء إصرارها . ومع هذا ، في فجر عيد كل القديسين ، عند عودته إلى حجرته البائسة بعد حوالي عام من الهجر ، ألفاها نائمة على أريكة الصالة تلبس تاجاً من زهور البرتقال وطرحة العرائس العذارى الطويلة .

قصت عليه ماريا حقيقة ما حدث . كان العريس الجديد – أرمل وبلا أولاد وفي سعة من عيشه ولديه نية الزواج بطقوس الكنيسة الكاثوليكية – قد هجرها بينما كانت تنتظره بملابس الزفاف أمام مذبح الكنيسة . وقرر والداها إقامة الحفل مهما كلف الأمر واستجابت هي لهما . رقصت وغنت مع فرقة المارياتشي وأسرفت في الشراب وفي لحظة رهيبة من الشعور بالذنب ، رحلت في منتصف الليل تبحث عن ساتورنو .

لم يكن بالمنزل لكنها وجدت المفاتيح كالعادة في أصيص الزهور بالممر .

في هذه المرة كانت هي التي استسلمت له بلا شروط ، فسألها هو : « إلى متى هذه المرة ؟ » فأجابته ببيت من شعر فينيثيوس دي مورايس : « الحب خالد ما دام قائماً » . بعد ذلك بعامين كان حبهما لا يزال خالداً .

عنَّ له أن ماريا دخلت مرحلة النضج ، فقد تخلت عن أحـلامها كممثلة ، وكرست نفسها له في العمل وفي الفراش . في نهاية العام السابق ، حضرا مؤتمراً للسحرة في « بربنيان » وتوقفا في طريق العودة ببرشلونة . راقتهما كثيراً وأقاما فيها ثمانية أشهر وسارت أمورهما على ما يرام فاشتريا شقة بحي « أورتا » القطلوني التقليدي ، شقة صاخبة وبلا بواب لكنها رحيبة وتتسع لخمسة أبناء .

كانت السعادة محتملة حتى نهاية ذلك الأسبوع الذي استأجرت فيه ماريا سيارة وذهبت لتزور أقاربها في سرقسطة على أن تعود قبل السابعة من مساء الاثنين . في صباح يوم الخميس ، لم يكن يستدل بعد على مكانها .

في يوم الاثنين ، خابرت المنزل شركة التأمين على السيارة تسأل عن ماريا . قال لهم ساتورنو : « لا أعرف شيئاً عنها . ابحثوا عنها في سرقسطة » ثم وضع السماعة . بعد ذلك بأسبوع ، ذهب إلى بيته أحد رجال الشرطة المدنيين يحمل نبأ العثور على هيكل السيارة في مكان مهجور بالقرب من « قادش » ، على مسافة تسعمائة كيلو متر من المكان الذي تركتها فيه ماريا . ود رجل الشرطة أن ترشده ماريا عن أية تفاصيل جديدة حول حادث السرقة . كان ساتورنو يطعم قطه ، وقال له دون أن يلتفت إليه تقريباً ودون مواربة ألا يضيعوا وقتهم فقد هجرت امرأته المنزل وأنه لا يعرف مع من أو إلى أين ؟ قال ذلك باقتناع أشعر رجل الشرطة بالحرج فأعرب له عن أسفه لأسئلته . وأغلق ملف القضية .

كـان خـوف سـاتورنو من أن تـهجره مـاريا ، مـرة أخرى ، قـد بدأ يقص مضجعه في عيد الفصح ، في « كداكِس » إلى حيث دعتها روسا ريجاس للإبحار في مركب شراعي . كنا في حانـة « ماريتيم » الصاخبـة المتـهالكة وكانت ملتقى La gauche diuine في أواخـر عـهـد فـرانكو ، نجلس حـول واحـدة من تلك الموائد الحديدية وعلى تلك المقاعد الحديدية التي تسع ستة أشخاص بالكاد وكان يجلس عليها عشرون . بعد أن أجهزت ماريا على علبتي سجائر في يوم واحد ، نفدت أعواد ثقابها فامتدت ذراع هزيلة مشعرة ، تلبس سوار مصارع روماني من البرونز ، تشق طريقها بين الجالسين وأشعلت سيجارتها . شكرتها ماريا دون أن تنظر إلى صاحبها لكن ساتورنو الساحر رآه . كان مراهقاً ناتيء العظام ، أجرد ، عليه هزال ميت وله « ذيل حصان » يصل حتى خاصرته . كان يرتدي ما يشبه « بيجاما للخروج » من القطن الخشن و نعال مزارع ، بينما يئن زجاج الحانة تحت شدة عاصفة « الترامونتانا » الربيعية .

لم يعــــــادوا رؤيته حتى كانت نهاية الخـــريف ، في مطعم الأسمـــــاك « لابرثيلونيتا » بذات ملابس المخنث المبتذل وبضفيرة بدلاً من « ذيل الحصان » . حياهما كصديقين حميمين ، ومن الطريقة التي قبل بها ماريا والطريقة التي ردت بها ماريا القبلة ، صعق ساتورنو شك في أنهما كانا يلتقيان خفية . بعد عدة أيام ، عثر عن طريق الصدفة على اسم جديد ورقم تليفون سجلتهما ماريا في أجندة المنزل ، وكشفت له بصيرة الغيرة عن صاحبهما . وأكدت الحالة الاجتماعية للدخيل ظنونه : اثنان وعشرون عاماً ، ابن وحيد لأسرة غنية ، مصمم واجهات عرض ، خنثي معروف وذو شهرة مؤكدة في الترفيه عن السيدات المتزوجات بالإيجار .

لكنه استطاع ضبط نفسه حتى تلك الليلة التي لم تعد فيها مـــاريا إلى

البيت . حينئذ أخذ يخابره يومياً ، أولاً : كل ساعتين أو ثلاث ، وأخيراً : كلما وجد جهاز التليفون أمامه . كانت مسألة ألا يرد أحد تضاعف عذابه .

في اليوم الرابع ، أجابته امرأة أندلسية تقوم بأعمال النظافة . قالت له بغموض شديد حتى كاد يفقد صوابه : « لقد ذهب سيدى » . لم يستطع ساتورنو أن يكبت رغبته في سؤالها إن كانت هناك الآنسة ماريا مصادفة . قالت له المـــرأة :

– لا تعيش هنا أية ماريا .

فأجابها :

– أعلم ذلك . هي لا تعيش هناك لكنها تذهب أحياناً . أم أن هذا ليس صحيحاً ؟

جنت المرأة . صرخت :

– لكن ، بحق الشيطان ، من يتحدث معي ؟.

وضع ساتورنو السماعة . عن له إنكار المرأة تأكيداً آخر لما كان ، في رأيه ، حقيقة ملتهبة لا مجرد ارتياب . فقد ضبط النفس . في الأيام التالية ، خابر جميع معارفه في برشلونة بترتيب الحروف الأبجدية . لم يستدل من أحد على شيء . لكن كل مكالمة كانت تعني زيادة في تعاسته لأن جنون غيرته أصبح شهيراً بين أهل La gauche divine من مدمني السهر ، وكانوا يجيبونه بنكات تؤلمه . حينئذ فقط وعى جيداً إلى أي حد أصبح وحيداً في تلك المدينة الجميلة ، الغريبة الأطوار ، المستغلقة عليه ، التي لن يكون فيها سعيداً مطلقاً .

عند الفجـــر ، بعد أن أطعم قطه ، ضغط قلبه حتى لا يموت وقرر أن ينسى ماريا .

بعد انقضاء شهرين ، لم تكن ماريا قد اعتادت بعد حياة المصح . كانت تحيا على نقر جراية السجن ، على قدر استطاعتها ، في الأطباق المثبتة في المائدة الخشبية الخشنة ، لا يتحول بصرها عن صورة الجنرال فرانثيسكو فرانكو التي تتصدر حجرة طعام كئيبة من العصور الوسطى .

في بداية الأمر ، رفضت حضور الطقوس الدينية برتابتها وبصلواتها التي تشغل الجانب الأكبر من الوقت ؛ أو لعب الكرة في فناء التريض ؛ أو العمل في ورشة الزهور الصناعية الذي كانت مجموعة من النزيلات تؤديه في نشاط محموم . ولكنها بدأت تنضم إلى حياة الحجز شيئاً فشيئاً ، بعد مرور ثلاثة أسابيع . وقال الأطباء إنهن جميعاً يكن على نفس الشاكلة في البداية وإنهن ينضممن في النهاية إلى الجماعة إن عاجلاً أو آجلاً .

أما نقص السجائر ، الذي تغلبت عليه في الأيام الأولى لأن إحدى الحارسات كانت تبيعها بسعر الذهب ، فقد عاد يؤرقها عندما نفدت البقية المتبقية من النقود التي كانت معها ثم اكتفت ، بعد ذلك ، بسجائر ورق الجرائد التي كانت بعض النزيلات تصنعها من أعقاب السجائر الملتقطة من القمامة ، لأن هوس التدخين كان قد بلغ حداً رهيباً كهوسها بالتحدث في التليفون .

أتاحت لها البيزيتات القليلة ، التي كسبتها فيما بعد لقاء عمل الزهور الصناعية ، راحة عارضة . بيد أن أشق الأمور على نفسها كانت وحدتها عندما يجن الليل . نزيلات كثيرات كن يبقين ساهرات مثلها في الظلام دون أن يجرؤن على شيء لأن الحارسة أيضاً كانت تسهر عند الباب الموصد بسلسلة وقفل . ومع هذا ، في إحدى الليالي ، وتحت وطأة الغم ، سألت ماريا بصوت كاف كي تسمعها جارتها في الفراش :

– أين نحن ؟

فأجابها صوت جارتها الرخيم والواعى

- فى قاع الجحيم .

وقالت أخرى بصوت متباعد رنَّ فى محيط العنبر :

- يقولون إن هذه أرض الكفار . ويبدو أن هذا صحيح . ففى الليالى المقمرة فى الصيف ، تسمع الكلاب وهى تنبح للبحر .

سمع دوى السلاسل الحديدية بالباب كدوى خطاف سفينة وفتح الباب . شرعت الحارسة ، الكائن الوحيد الذى بدا حياً فى سكون تلك اللحظة ، تتجول بالعنبر من أقصاه إلى أقصاه . ذعرت ماريا وكانت وحدها تعرف السبب .

منذ أول أسبوع لها بالمصح ، عرضت عليها الحارسة الليلية بلا مواربة أن تنام معها فى حجرة الحراسة ، وبدأت عرضها فى لهجة اتفاق محددة : مقايضة الحب بالتبغ ، بالشيكولاتة ، بأى شىء . قالت لها فى توتر : « سيكون لك ما تطلبين ، ستصبحين الملكة ». . إزاء رفض ماريا ، أبدلت الحارسة طريقها . كانت تترك لها قصاصات حب تحت الوسادة ، فى جيبى معطفها ، أى فى الأماكن غير المتوقعة . كانت رسائل عاطفية تمزق نياط القلب وترتعد لها الحجارة .

بدت الحارسة مستسلمة لهزيمتها قبل شهر من الحادثة التى وقعت فى عنبر النوم .

حينما خالت النزيلات نائمات ، اقتربت من سرير ماريا وباحت لها فى أذنها بكل البذاءات الرقيقة بينما كانت تقبل محياها ورقبتها المتشنجة من الرعب وذراعيها المتصلبتين وفخذيها المنهكتين . وأخيراً ، عندما اعتقدت أن سكون ماريا لم يكن خوفاً بل رضا ، تمادت فى جرأتها . عندئذ ، صفعتها ماريا بظهر يدها صفعة أودت بها إلى الفراش المجاور . نهضت الحارسة غاضبة وسط ضجة النزيلات الفزعات . صاحت فيها :

- يا ابنة العاهرة . سنتعفن هنا معاً فى هذا الإصطبل إلى أن تُجَنّى بى .

حل الصيف بلامقدمات مع أول يوم أحد من شهر يونية ، ودعت الحاجة إلى اتخاذ إجراءات عاجلة لأن النزيلات بدأن يخلعن معاطفهن الصوفية أثناء القداس ، وشهدت ماريا مبتهجة منظر المريضات عاريات فى العنابر كدجاجات عمياء والحارسات من خلفهن يسقنهن .

فى خضم تلك الفوضى ، حاولت أن تحتمى من الضربات الطائشة ، ودون أن تدرى وجدت نفسها وحيدة فى مكتب مهجور به جهاز تليفون يرن مستعطفاً بلا توقف . ردت ماريا دون تفكير فسمعت صوتاً بعيداً وباسماً يتسلى بتقليد صوت خدمة الساعة التليفونية :-

- الساعة الآن الخامسة والأربعون و اثنتان وتسعون دقيقة ومائة وسبع ثـــوان .

قالت له ماريا :

- أيها الخنثى !

ووضعت السماعة مسرورة . كادت تخرج من الحجرة عندما جال ببالها أنها تضيع فرصة لا تعوض . حينئذ أدارت القرص ست مرات فى عجلة وتوتر شديدين ، وغير واثقة بأنه رقم منزلها . انتظرت وقلبها جامح . سمعت الرنين المألوف تشوبه شراهة وحزن ، مرة ، مرتين ، ثلاث مرات ، وأخيراً سمعت صوت رجل حياتها فى المنزل بدونها :

- آلو !

اضطرت أن تنتظر حتى تمر عقدة الدموع التى تكونت فى حنجرتها ثم تنهدت :

- أرنبى ، حياتى !

هزمتها الدموع . على الجانب الآخر ، مرت لحظة صامتة من الرعب ثم بصق الصوت المشتعل غيرة بالكلمة :

- عاهرة !

ثم وضع السماعة .

فى تلك الليلة ، وفى نوبة هياج ، خلعت ماريا صورة الجنرال المعلقة فى قاعة الطعام و ألقت بها بكل قوتها ضد زجاج نافذة الحديقة ثم سقطت على الأرض مضرجة بدمائها . وبقيت لها بعض قوة لتواجه ضربات الحارسات اللائى فشلن فى السيطرة عليها حتى رأت « هرقلينا » تسد الباب وتنظر إليها وقد تشابكت ذراعاها أمام صدرها . استسلمت . ومع هذا ، سحبوها حتى عنبر الحالات الخطرة وهزموها بخرطوم الماء البارد وحقنوها بالتربنتين فى ساقيها.

أحست ماريا ، بعد أن فقدت قدرتها على السير بسبب أورامها ، بأنها على أهبة الاستعداد لارتكاب أى شىء للفرار من ذلك الجحيم . فى الأسبوع التالى ، بعد عودتها إلى عنبر النوم ، سارت على أطراف أصابعها وطرقت باب زنزانة الحارسة الليلية .

كان ثمن ماريا الذى طلبته مقدماً هو حمل رسالة إلى زوجها . قبلت الحارسة طالما ظل الاتفاق فى طى الكتمان . وأشارت بسبابتها الرهيبة :

- إذا عرف هذا السر ذات مرة سأقتلك !

وهكذا ذهب ساتورنو الساحر إلى المصح فى يوم السبت التالى ، في شاحنة السيرك الصغيرة ، ليحتفل بعودة ماريا . استقبله المدير شخصياً فى مكتبه النظيف والمرتب كأنه سفينة حربية ، وقدم له تقريراً ودياً عن حالة زوجته . لم يكن أحد يعلم من أين أو كيف أو متى أتت ؟ لأن أول بيان باحتجازها كان السجل الرسمى الذى أملاه بنفسه عندما أجرى معها مقابلة . ولم ينته تحقيق بدأ

فى ذلك اليوم إلى شىء . على أية حال ، ما كان يثير حيرة المدير هو كيف علم ساتورنو بمكان زوجته . لم يشأ ساتورنو أن يعرض الحارسة للمساءلة . قال :

– أخبرتنى به شركة التأمين على السيارة .

أجابه المدير مسروراً : « لست أدرى ما تفعله شركات التأمين لتعرف كل شىء ؟ » . وألقى بنظرة متفحصة على الملف الذى كان فوق مكتبه المتقشف واختتم حديثه قائلاً :

– إن الشىء الوحيد المؤكد هو خطورة حالتها !

كان على أهبة الاستعداد لأن يسمح له بزيارتها مع الحيطة اللازمة إذا وعده ساتورنو الساحر ، لمصلحة زوجته ، أن يلتزم بالسلوك الذى سيحدده له ، وخاصة طريقة معاملتها حتى يتجنب أن تعاودها نوبات الهياج المتزايدة والخطرة بمرور الوقت . قال ساتورنو :

– يا للغرابة ! كانت دائماً نزقة ، ولكنها كانت تجيد السيطرة على نفسها .

أومأ الطبيب إيماءة حكمة وقال : « ثمَّ سلوك يبقى كامناً لسنين طويلة ثم يندلع مرة واحدة . ومع هذا ، من حسن طالعها أنها وقعت هنا ، لأننا متخصصون فى الحالات التى تحتاج إلى يد من حديد » . وأخيراً ، حذره من هوس ماريا بالتحدث فى الهاتف . قال له :

– لا تعارضها !

أجابه ساتورنو على نحو بهيج :

– لا تخش شيئاً يا دكتور ، فهذا تخصصى .

كانت صالة الزيارات ، فى القديم ، هى صالة المحادثة فى الدير ، ولها هيئة سجن أو حجرة اعتراف . لم يكن لدخول ساتورنو انفجار الفرح الذى كان

كلاهما يتوقعه . كانت ماريا تقف وسط الصالة إلى جانب منضدة بكرسيين عليها قارورة بلا زهور . كان واضحاً أنها استعدت للرحيل معه بمعطفها المؤسى بلون الفراولة وحذائها البائس الذى منح لها كصـــدقة . فى أحد الأركـــان ، وقـفت « هرقلينا » لا تكاد ترى وقد شبكت ذراعيها . لم تحرك ماريا ساكناً عندما رأت زوجـها يدخل ولم يبد أى تأثر على محـياها الذى كـانت آثار شظايا الزجـاج لا تزال واضحة عليه . قبل كلاهما الآخر قبلة روتينية . سألها :

- بما تشعرين ؟

أجابته :

- بالسعادة لأنك جئت أخيراً يا أرنبى . كان هذا الموت بعينه .

لم يسعـهما الوقت كى يجلسا . قصت عليه ، والعبرات تخنقها ، شقاء الحجز وبربرية الحارسات وطعام الكلاب وليالى السهر الطويلة دون أن يغمض جفنها من الرعب .

قالت :

- لست أعلم كم يوماً قضيته هنا أم كم شهراً أم كم سنة ؟ ولكننى أعلم أن كل يوم كان أسوأ من سابقه .

ثم تنهدت بكل روحها :

- أعتقد أننى لن أعود قط إلى سابق عهدى .

قال وهو يلامس آثار الجروح الحديثة بأنامله :

- لقد انتهى كل ذلك إلى غير رجعة . سأحضر دائماً كل أيام السبت ، بل وفى أى يوم آخر يسمح به المدير . وسترين كيف أن كل الأمور ستسير على خير ما يرام .

حدجته بعينيها المرعوبتين . حاول ساتورنو أن يجرب معها حيله السحرية . وفى لهجة الأكاذيب الكبرى الصبيانية أعطاها تفسيرا مخففاً لتشخيص

الطبيب ، واختتم حديثه بقوله : « باختصار، تنقصك عدة أيام حتى تتماثلى للشفاء تماماً » . أدركت ماريا حقيقة الأمر ، قالت مذعورة :

– بحق السماء ، يا أرنبى.لا تقل لى الآن إنك أيضاً تصدق أننى مجنونة!

قال هو محاولاً الضحك :

– كيف جال هذا بخاطرك ؟ ما يحدث هو أن من الأفضل للجميع أن تمكثى هنا لبعض الوقت . وفى ظروف أفضل بالطبع .

قالت ماريا :

– ولكننى قلت لك إننى جئت فقط لأتحدث فى التليفون !

لم يدر أى سلوك يسلكه إزاء إصرارها المخيف . نظر إلى « هرقلينا » . اغتنمت هى هذه الفرصة كى تشير إليه بساعتها بأن وقت الزيارة انتهى . اعترضت ماريا تلك الإشارة ونظرت إلى الخلف فلمحت « هرقلينا » قبل لحظة الهجوم المرتقبة . عندئذ تعلقت فى رقبة زوجها تصرخ كمجنونة حقيقية . تملص منها بكل الحب الممكن وتركها فريسة لهرقلينا التى قفزت وراء ظهرها ودون أن تمكنها من الرد لوت ذراعها بيدها اليسرى وأطبقت على عنقها بذراعها الفولاذية الأخرى ، ثم صرخت فى وجه ساتورنو الساحر :

– اذهب !

فر ساتورنو مذعوراً .

ومع هذا ، فى يوم السبت التالى ، وبعد أن برأ من رعب الزيارة الأولى ، عاد إلى المصح ومعه قطه كان يرتدى نفس ثيابه : شبكة « ليوتاردو » العظيم بلونيها الأحمر والأصفر وقبعة وعباءة فضفاضة كأنها عباءة طيران . ودخل بشاحنة السيرك حتى الفناء الداخلى وهناك أدى عرضاً إعجازياً دام حوالى ثلاث ساعات استمتعت به المريضات من الشرفات بصيحات متنافرة وتصفيق فى غير موعده .

حضرت جميعهن العرض فيما عدا ماريا التى لم تكتف برفض لقاء زوجها فحسب بل أبت أن تراه من الشرفة . شعر ساتورنو بأنه جرح جرحاً مميتاً فقال له الطبيب معزياً :

– إنه رد فعل تقليدى . لن تلبث أن تنساه .

ولكنها لم تنسه قط .. بعد فشله المتكرر فى رؤية ماريا ، أقدم ساتورنو على المستحيل كى تتلقى منه رسالة ، لكنه لم يأت بأية نتيجة ، فقد أعادت له أربعة خطابات مغلقة وبلا تعليق . أقلع ساتورنو عن محاولاته ولكنه ظل يترك لها حصة السجائر المعتادة عند البوابة دون أن يتيقن إن كانت تصل لماريا أم لا ، حتى هزمه الواقع .

انقطعت أخباره إلى الأبد فيما عدا أنه تزوج من جديد وعاد إلى بلاده . وقبل أن يرحل عن برشلونة ، ترك قطه الذى كان يتضور جوعاً لإحدى صديقاته العارضات والتى تعهدت أيضاً بأن تستمر فى إرسال التبغ إلى ماريا ، ولكنها اختفت هى أيضاً . وتتذكر « روسا ريجاس » أنها رأتها ذات مرة أمام أحد محلات « الكورت إنجلس » منذ حوالى اثنتى عشرة سنة ، حليقة الرأس ، ترتدى ثوباً برتقالياً مميزاً لجماعة دينية من الشرق الأقصى وفى الأشهر الأخيرة من الحمل.

قصت عليها أنها داومت على إرسال التبغ إلى ماريا كلما تمكنت من ذلك وكذا حل بعض احتياجاتها الملحة حتى جاء ذلك اليوم الذى لم تعثر فيه سوى على أنقاض المستشفى وقد مُحى كما تمحى ذكرى نحسة من ذكريات ذلك الزمن التعس . فى المرة الأخيرة التى رأت فيها ماريا ، ألفتها فى أوج وعيها ، كانت قد تخطت وزنها المعتاد وسعيدة فى سكينة الدير . فى ذلك اليوم ، سلمتها القط أيضاً .. لأن ما أعطاها ساتورنو من المال لإطعام قطه كان قد نفد .

إبريل ١٩٧٨

الحكاية السادسة

أشبـــاح فى أغسطـس

وصلنا « أريتسو » قبيل منتصف النهار ، بعد ساعتين من البحث عن القصر القديم المنتمي إلى عصر النهضة والذى اشتراه الكاتب الفنزويلي ميجل أوتيرو سيلڤا في منعطف رعائي من ريف توسكانا . كان يوم أحد في أوائل شهر أغسطس ، قائظاً وصاخباً ، وليس من السهل فيه العثور على من يعرف الطريق ، في الشوارع المزدحمة بالسياح .

بعد العديد من المحاولات العقيمة ، عدنا إلي السيارة وغادرنا المدينة من طريق تحفه أشجار السرو وبلا علامات إرشادية ، ودلتنا عجوز ترعى الأوز إلى موقع القصر بدقة . قبل أن تذهب سألتنا إن كنا ننتوى قضاء الليل هناك فأجبناها بأننا ذاهبون للغداء فقط ، كما كان مزمعاً .. قالت :

– هذا أفضل ، لأن به أشباحا .

سخرت وزوجتي من سذاجتها فلم نكن نعتقد في ظهور أشباح في وضح النهار . لكن ولدينا ، في التاسعة والسابعة من عمرهما ، شعرا بالسعادة لفكرة العثور بشبح حقيقي .

كان ميجل أوتيرو سيلڤا ، الكاتب العظيم والمضيف السخي والذواقة الراقي ، قد أعد لنا مأدبة من تلك المآدب التي تحفر بالذاكرة . ولم يسعفنا الوقت – بسبب تأخرنا – كي نشاهد القصر من الداخل قبل جلوسنا إلى مائدة الغداء ، بيد أن مظهره من الخارج لم يوح بأي شئ يخيف ، وكان لأى قلق أن يتلاشي

بمجرد مشاهدة منظر المدينة العام من الشرفة المزدهرة التى كنا نتناول الطعام فيها . كان من العسير تصور أن يولد كل أولئك العباقرة فى ذلك السفح الذى تسلقته المنازل ولا يكاد يسع تسعين ألف نفس . مع هذا ، قال لنا ميجل أوتيرو سيلفا بملاحته الكاريبية : ليس من بينهم من يعتبر أشهر رجل فى أريتسو . ثم أصدر حكمه :

– إن أعظمهم هو لودوفيكو .

هكذا ، بلا ألقاب : لودوفيكو ، سيد الفنون والحرب العظيم الذى شيد ذلك القصر لتعاسته ، والذى تحدث عنه ميجل طوال الغداء . حدثنا عن سلطانه الواسع وعن حبه الشقى وعن ميتته الرهيبة . وقص علينا كيف أنه ، فى لحظة جنون ، طعن محبوبته فى فراشهما بعد أن تحابا وكيف أنه ، بعد ذلك ، حث كلابه المتوحشة بنفسه فمزقت جسده بين أنيابها . وأكد لنا جدياً أنه ، بدءًا من منتصف الليل ، يجول شبح لودوفيكو بالمنزل فى الظلام ناشداً السكينة فى مطهر حبه .

كان القصر فى الحقيقة رحيباً ومظلماً . بيد أن حكاية أوتيرو سيلفا فى وضح النهار وبعد أن أترعت البطون وسعدت القلوب بدت كأنها إحدى دعاباته لتسلية ضيوفه . كانت غرف القصر الاثنتان والثمانون قد تعرضت لكافة صنوف النقل بتتابع ملاكه ، ثم جاء ميجل فرمم الطابق الأرضى بأكمله ، وشيد لنفسه حجرة نوم عصرية بأرضية من الرخام وتجهيزات للساونا والرياضة البدنية ، وشيد أيضاً الشرفة ذات الزهور الزاهية التى تناولنا فيها غداءنا .

كان الطابق الثانى ، أكثر الطوابق استخداما على مدى العصور ، بمثابة حجرات متجاورة بلا أى طابع مميز وبها أثاث من حقب مختلفة ترك لمصيره .

لكن الحجرة الأخيرة كانت مكتملة الأثاث ، ونسي الزمن أن يمر بها . كانت حجرة نوم لودوفيكو . كانت لحظة سحرية . الفراش ذو الستائر المنقوشة بخيوط من ذهب ، الملاءة - إحدى عجائب التطريز المزركش - خشنة في مواضع آثار الدماء الجافة - دماء المحبوبة المذبوحة - رماد المدفأة البارد ، آخر أعواد حطبها وقد صار صخراً ، خوان الملابس بقوائمه الراسخة ، لوحة زيتية لسيد القصر يتأمل ، في إطارها الذهبي ، رسمها أحد كبار المصورين الفلورنسيين لم يشأ سوء طالعه أن يخلد بعد موته .

بيد أن أشد ما هيج مشاعري عبق الفراولة الطازجة الذي ظل راكداً بلا تفسير محتمل في محيط الحجرة .

أيام الصيف طويلة وبطيئة في توسكانا ، ولا يتحرك الأفق من مكانه حتى التاسعة مساء . عندما انتهينا من رؤية القصر كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بيد أن ميجل أصر على اصطحابنا لمشاهدة لوحات بييرو دي لافرانشسكا في كنيسة سان فرانشيسكو ثم جلسنا نتناول القهوة ونتحدث تحت عريش ميدان البلدة ، وحين عدنا بحثاً عن حقائبنا وجدنا العشاء معداً فمكثنا لتناول العشاء .

بينما كنا نفعل ، تحت سماء خبازية بنجم واحد ، أوقد الأطفال مشاعل في المطبخ وراحوا يجوبون الظلمات في الطوابق العليا . من الشرفة ، كنا نسمع وقع سنابك جيادهم الجبلية الراكضة على السلم وأنين الأبواب والصيحات المبتهجة تنادي لودوفيكو في الحجرات المعتمة . إليهم ترجع فكرة قضاء الليل هناك ، الفكرة النحسة . أيدهم ميجل أوتيرو سيلفا بكل سرور ، ولم تواتنا الشجاعة الأدبية لرفضها .

على عكس ما كنت أخشاه ، نمنا نوماً هادئاً ، أنا وزوجتي في حجرة نوم بالدور الأرضي ، وولدانا بالحجرة المجاورة . كانت كلتا الحجرتين قد تم ترميمهما

ولم يكن بهما ما يخيف . بينما كنت أحاول النوم ، أحصيت الاثنتى عشرة دقة المؤرقة الصادرة من ساعة البندول فى الصالة وتذكرت تحذير راعية الأوز الخائف .. لكننا كنا متعبين ورحنا فى السبات فى الحال ، سبات عميق ومتواصل .

صحوت بعد السابعة على ضوء شمس رائعة أطلت من بين النباتات المتسلقة بالنافذة . كانت زوجتى بجوارى قلت لنفسى : « من العبث أن يعتقد أحد فى الأشباح فى هذا الزمن » . حينئذ فقط أرعد فرائصى عبق الفراولة الطازجة ، ورأيت رماد المدفأة البارد وآخر عود حطب وقد صار صخراً ولوحة السيد الحزين الذى كان ينظر إلينا منذ ثلاثة قرون عبر الإطار الذهبى . لم نكن فى حجرة النوم بالطابق الأرضى التى آوينا إليها فى الليلة السابقة بل فى حجرة نوم لودوفيكو ، تحت الطنف والستائر المغبرة ، وبين الملاءات التى مازالت مبتلة بدم مازال دافئاً ، دم فراشه الملعون .

أكتوبر ١٩٨٠

الحكاية السابعة

ماريا دوس برازيريس

وصل مندوب وكالة دفن الموتى في موعده بالضبط وماريا دوس برازيريس لاتزال في برنس الحمام ورأسها مليئة «بالرولوهات» ، فلم يسعفها الوقت سوى لكي تضع وردة حمراء في أذنيها حتى لاتبدو منفرة كما كانت تشعر . ولقد اشتد أسفها للحالة التي كانت عليها لا سيما عندما فتحت الباب ووجدت أنه لم يكن موثقا كئيبا - كما كانت تتخيل هيئة «تجار الموت» - وإنما كان شابا خفرا يرتدى سترة مربعات وربطة عنق نقشت عليها طيور ملونة . لم يكن يرتدى معطفا على الرغم من تقلب الربيع في برشلونة . فالرذاذ والرياح الزاوية تجعلها أقل لطفا في الربيع منها في الشتاء ، كانت تلك إحدى المرات المعدودة التي شعرت فيها ماريا دوس برازيريس بالخجل وهي التي اعتادت استقبال الرجال في أية ساعة. كانت ، وقد أتمت السادسة والسبعين من عمرها متيقنة من أنها ستلاقى ربها قبل عيد الميلاد، ومع ذلك أوشكت أن تغلق الباب وتطلب من «بائع الجنازات» أن ينتظر برهة إلى أن ترتدى ملابسها لتستقبله كما يجب . بيد أنها سرعان ما أدركت أنه قد يتجمد من البرد عند عتبة الباب المظلمة فأدخلته .

قالت :

- أستميحك العذر لمظهرى الخفاشي ، لكن لي أكثر من ٥٠ عاما في قطلونيا وهذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها أحد في الموعد المحدد .

كانت تتحدث القطلونية بطلاقة بل بنقاء ربما عفا عليه الزمن ، وإن شابها بعض موسيقى برتغاليتها المنسية . على الرغم من تقدم سنها ومن «البكليهات» المعدنية كانت لاتزال سمراء رشيقة موفورة الحيوية ، ذات شعر متين وعينين صفراوين قاسيتين ، فمنذ زمن بعيد كانت قد فقدت أية شفقة نحو الرجال . أما البائع الذي بهره ضوء الشارع فلم يعلق بشيء بعد أن مسح حذاءه في حصيرة المدخل المصنوعة من القنب وقبل يدها بإيماءة احترام . قالت ماريا دوس برازيريس مقهقهة :

لقد ذكرتني بالرجال أيام شبابي . اجلس .

برغم كونه جديدا على هذه المهنة ، تعلم ألا يعول كثيرا على مثل هذا الاستقبال الحافل فى الثامنة صباحا خاصة من عجوز بلا رجمة بدت له للوهلة الأولى هاربة من القارة الأمريكية . لذا وقف على مقربة خطوة من الباب دون أن يدرى ماذا يقول بينما تزيح ماريا دوس برازيريس ستائر النوافذ المصنوعة من الألياف الصناعية . ضوء أبريل الواهن أنار بالكاد أركان الصالة الصغيرة القريبة الشبه بمحل عاديات . كانت كلها أشياء تستخدم فى الحياة اليومية ليس أكثر ، وبدا كل شيء فى مكانه الطبيعى ، ينم عن ذوق سليم يتعذر معه أن يكون ثمة منزل آخر بهذه العناية فى مدينة قديمة وغامضة كمدينة برشلونة . قال : أستميحك عذرا ، لقد أخطأت المنزل .

قالت : ليتك فعلت ، بيد أن الموت لا يخطىء .

على مائدة حجرة الطعام ، بسط البائع خريطة ذات ثنايا عديدة كأنها خريطة ملاحة بها تقسيمات ذات ألوان مختلفة وأرقام بكل لون . أدركت ماريا دوس برازيريس أنها الخريطة الكاملة الخاصة بمدافن مونجوى (١) الشاسعة ، وتذكرت بفزع قديم جبانة ماناوس (٢) تحت أمطار أكتوبر : كان التابير (٣) يعيث بين توابيت بلا أسماء وأضرحة مغامرين بزجاجها الفلورنسى . ففى أحد أيام طفولتها أضحى نهر الأمازون بعد الفيضان مستنقعا مثيرا للغثيان ، رأت التوابيت المهشمة تطفو فى بهو منزلها وقد أطلت من شقوقها بقايا ثياب وشعر الموتى . كان هذا سبب اختيارها تل مونجوى لترقد فى سلام بدلا من جبانة سان خيرباسيو القريبة والعائلية .

قالت : أريد مكانا لا تصله المياه أبدا .

قال البائع مشيرا إلى مكان على الخريطة بمؤشر متعدد الأطوال كان

---

(١) مونجوى †(Montjuic): تلال قريبة من قلب برشلونة ، بها قصر لإقامة المعارض ومضمار للسباقات الرياضية .

يحمله فى جيبه كقلم حبر من الفولاذ :

– هنا بالطبع . لايمكن لأى بحر أن يرتفع إلى هذا المكان .

بحثت فى الخريطة الملونة حتى عثرت على البوابة الرئيسية . بالقرب منها اصطفت ثلاث مقابر متجاورة متشابهة خلت شواهدها من الأسماء ، تضم رفات بوينا بنتورا دورّوتى [٤] وزعيمين فوضويين أخرين من ضحايا الحرب الأهلية . كل ، ليلة شخص ما كان يكتب أسماءهم على الشواهد الخالية ، بالقلم الرصاص أو بالطلاء أو بالفحم أو بقلم ظلال الوجه أو بطلاء الأظافر ، وكل صباح كان الحراس يمحونها حتى لايعلم أحد من يرقد تحت الرخام الأصم . وماريا دوس برازيريس التى شهدت جنازة دوروتى – أشد الجنازات حزنا وصخبا فى تاريخ برشلونة – ودت لو دفنت إلى جواره . بيد أنه لم تكن هناك مقبرة واحدة خالية فى الجبانة الشاسعة المزدحمة . لذا رضيت بما هو ممكن . قالت :

– بشرط ألا تحشرونى فى واحد من تلك الصناديق التى يقسّط ثمنها على خمس سنوات ويرقد المرء فيها كأنه فى صندوق بريد .

ثم عندما تذكرت فجأة الشرط الأساسى أضافت :

– وقبل كل شىء لابد أن أدفن فى وضع الرقاد .

كانت بالفعل قد سرت شائعات بأنه يتم دفن الجثث رأسيا لتوفير المكان ، وذلك كرد فعل لبيع دفعة من المقابر بالتقسيط أحدثت جلبة . شرح البائع فى دقة من يحفظ خطبة عن ظهر قلب رددها كثيرا أن تلك الشائعات فرية شريرة من

---

(٢) ماناوس †(Manaos): مدينة برازيلية وميناء على نهر الأمازون .

(٣) حيوان يعيش فى الغابات الرطبة فى أمريكا وآسيا الاستوائية ، لحمه شبيه بلحم البقر .

(٤) زعيم فوضوى إسبانى شهير .

قبل المؤسسات الجنائزية التقليدية للنيل من نظام بيع المقابر بالتقسيط وهو نظام جديد . وبينما هو مستغرق في شرح ذلك سمعت بالباب ثلاث طرقات خفيفة فصمت حائرا لكن ماريا دوس برازيريس أومأت إليه أن يستمر . قالت في صوت خفيض :

– لا تلق بالا . إنه نوى .

استأنف البائع حديثه واقتنعت ماريا دوس برازيريس بما قال . ومع هذا وقبل أن تفتح الباب أرادت أن توجز نهائيا وبأدق وأخص التفاصيل فكرة نضجت في قلبها على مدى سنوات طوال ، منذ فيضان ماناوس الأسطوري . قالت :

– ما أريد أن أقوله هو أنني أبحث عن مكان أرقد فيه تحت التراب ، وإن أمكن في ظل الأشجار في الصيف ومن حيث لا يخرجني أحد بعد مرور بعض الوقت ليلقي بي في القمامة .

فتحت باب المنزل فدلف كلب صغير بلله المطر وله هيئة رثة لا تتناسب بحال مع بقية المنزل . كان عائدا من نزهته الصباحية بالمنازل المجاورة ، وعندما دخل أصيب بنوبة من الهياج . قفز فوق المائدة ينبح بلا وعي وكاد يلوث خريطة الجبانة بأقدامه المتسخة بالطين . نظرة واحدة من صاحبته كفت كي تهدأ اندفاعاته . قالت له دون صياح :

– نوى ، انزل من هنا .

تقلص الحيوان ونظر إليها ملتاعا وانحدرت دمعتان رائقتان على مخطمه . حينئذ عاودت ماريا دوس برازيريس الانتباه إلى المندوب فوجدته متحيرا . صاح:

– ياللشيطان ، لقد بكى !

اعتذرت ماريا دوس برازيريس نيابة عن كلبها بصوت خفيض :

– إنه مهتاج لرؤيتك هنا في مثل هذه الساعة ، عموما ، هو يدخل البيت

في حرص يفوق حرص الرجال ، فيما عداك بالطبع حسبما رأيت .

ردد البائع :

- ولكنه بكى ، بحق الشيطان .

ثم أدرك في الحال أنه وقع في خطأ فاعتذر خجلا :

- معذرة ياسيدتي ، لكن هذا لم يحدث حتى في السينما .

قالت :

- يمكن لكل الكلاب أن تفعل ذلك لو دربت ، لكن ما يحدث هو أن أصحابها يضيعون الوقت في تعليمها عادات تتسبب في معاناتها كالأكل في أطباق أو قضاء حاجتها في أوقات معينة وفي نفس المكان . هم في المقابل لايعلمونها الأشياء الطبيعية التي تحبها كالضحك والبكاء . أين توقفنا ؟

لم يكن ينقص شيء . اضطرت ماريا دوس برازيريس إلى قبول الصيف بلا أشجار لأن الشجر الوحيد الموجود في المقابر كانت ظلاله مقصورة على رجالات النظام . فيما عدا ذلك ، كانت شروط ونصوص العقد غير ذات أهمية ، لأنها كانت تطمع في الاستفادة من التخفيض إذ ستدفع الثمن نقدا .

لم يكن المندوب قد تفحص بعد المنزل بنظرة واعية عندما انتهيا من كل شيء وأخذ يحفظ الأوراق في حقيبته ، كان لرونق المنزل عبق سحري جعله ينتفض . عاد ببصره إلى ماريا دوس برازيريس كأنه يراها لأول مرة .

سألها : هل أستطيع أن أسألك سؤالا شخصيا ؟

أوصلته إلى الباب .

- طبعا ، طالما لا يتعلق بسني ؟

- لي ولع بتخمين مهن الناس من الأشياء الموجودة في بيوتهم والحقيقة

أننى هنا لا أستطيع ذلك . ما هى مهنتك ؟

أجابته ماريا دوس برازيريس وقد خنقها الضحك :

- إننى عاهرة يابنى ، أم أن ذلك لم يعد بعد ملاحظا ؟

احمر وجه البائع . قال :

- آسف .

قالت وهى تأخذه من ذراعه حتى لا يرتطم بالباب :

- لك أن تتخيل أسفى أنا . اسهر على نفسك واحذر أن يصيبك مكروه قبل أن تدفننى فى مثوى أمين .

بعد أن أغلقت الباب حملت الكلب وشرعت فى تدليله ثم انضمت بصوتها الافريقى الجميل إلى كورال الأطفال الذى أخذ يسمع فى تلك اللحظة بين صغار الحى . قبل ذلك بثلاثة أشهر رأت فيما يرى النائم اقتراب أجلها . منذ تلك اللحظة شعرت بارتباط أشد نحو هذا المخلوق الذى يشاطرها وحدتها . كانت قد أعدت لتوزيع متعلقاتها بعد موتها وحددت مصير جسدها بدقة شديدة بحيث تستطيع أن تقضى فى تلك اللحظة نفسها دون أن تفاجىء أحدا . كانت قد تقاعدت بمحض إرادتها وبثروة ادخرتها «حجرا على حجر» لكن بلا تضحيات مريرة ، واختارت سكنى حى «جراثيا» العريق النبيل كملجأ أخير . اشترت شقة (دور سحرى) متهدمة لها دائما رائحة الرنجة المدخنة واحتفظت حوائطها التى أكلتها الأملاح بآثار أعيرة نارية تذكر بمعركة بلا مجد (٥) . لم يكن ثمة بواب وكانت تنقص السلم الرطب والمعتم بعض الدرجات مع أن جميع الشقق كانت مأهولة . قامت ماريا دوس برازيريس بتجديد الحمام والمطبخ وغلفت الحوائط بألوان بهيجة ووضعت زجاجا مشطوفا وستائر من المخمل فى النوافذ . وأخيرا

نقلت الأثاث الفاخر وأطقم المطبخ والديكور والصناديق المبطنة بالحرير والديباج التى سرقها الفاشيون من القصور التى هجرها الجمهوريون بعد هزيمتهم واشترتها هى قطعة تلو القطعة على مدى سنوات فى صفقات سرية وعلى أنها مستعملة . كانت صداقتها بكونت كاردونا الذى لم ينقطع عن زيارتها الجمعة الأخيرة من كل شهر ليتناول عشاءه ويمارس معها حبا روتينيا هى الصلة الوحيدة التى تربطها بالماضى . بيد أنه حتى تلك الصداقة القديمة عاشت رهن التكتم ، فقد كان الكونت يترك سيارته التى تحمل شعار أسرته على مسافة كبيرة ويصل إلى منزلها مشيا على قدميه وبعيدا عن الضوء ، وذلك حفاظا على شرفها وعلى شرفه أيضا . ولم تكن لماريا دوس برازيريس صلة بأحد فى البناية فيما عدا الشقة المقابلة لها حيث يقطن زوجان لهما طفلة في التاسعة من عمرها . ولقد عنّ لها من غير المعقول - وإن كانت تلك هى الحقيقة - ألا تلتقى بأحد غيرهم في الدرج . ومع هذا فإن تقسيم إرثها أثبت لها تأصلها بين جيران قطلونيين أقحاح تأسس شرفهم القومي على الحياء . حتى أقل متعلقاتها نفعا وزعتها بين أقرب الناس إلى قلبها ، أى أقرب الناس إلى شقتها . فى نهاية الأمر لم تكن مقتنعة تماما بأنها كانت عادلة ولكنها تأكدت فى ذات الوقت من أنها لم تنس أحدا استحق شيئا . أعدت لذلك بدقة جعلت موثق عقود شارع أربل - المعروف بأنه رأى الكثير - لا يصدق عينيه عندما رآها تملى على مساعديه عن ظهر قلب قائمة دقيقة بممتلكاتها ، كل شيء باسمه الدقيق ، وبقطلونية العصور الوسطى ، وكذلك قائمة ورثتها ومهنهم ومحل إقامتهم والمكانة التى يحتلونها فى قلبها . بعد زيارة «بائع الجنازات» ، صارت واحدة من زوار الجبانة المعتادين أيام الآحاد . ومثلما كان يفعل جيرانها فى الجبانة ، زرعت زهورا للفصول

---

(٥) إشارة إلى معارك الحرب الأهلية .

الأربعة وسقت العشب النامي وشذبته بمقص التقليم حتى تركته على هيئة بُسُط قصر البلدية ، واعتادت المكان إلى حد أنها تعجبت كيف بدا لها موحشا في بادىء الأمر . في أول زيارة لها ، خفق قلبها إذ رأت المقابر الثلاث بلا أسماء ، لكنها لم تتمكن من التوقف لمجرد النظر إليها لوجود حارس مؤرق يقف على مقربة منها . بيد أنها في ثالث يوم أحد اقتنصت فرصة عدم انتباهه كي تحقق واحدا من أحلامها الكبرى ، وبقلم أحمر الشفاه خطت على أول شاهد قبر غسله المطر اسم «نوروتي» منذ تلك المرة ، عاودت الكرة كلما سنحت لها الفرصة ، أحيانا تخط الاسم على قبر واحد أو على اثنين أو على الثلاثة معا ، كانت تفعل ذلك برباطة جأش بينما يهتاج القلب حنينا .

في أحد أيام الآحاد في أواخر شهر سبتمبر ، شهدت أول جنازة في التل . بعدها بثلاثة أسابيع ، دفنت في القبر المجاور لقبرها امرأة شابة تزوجت حديثا ، وقبل نهاية العام شغلت سبع مقابر . لكن شتاء عاجلا مر دون أن يقترب منها . لم تشعر بأى ضيق بل كلما ارتفعت درجة الحرارة ودخل صخب الحياة الجارف من النوافذ المفتوحة كلما شعرت برغبة في الانتصار على ألغاز الرؤيا . ولقد وجدها كونت كاردونا - الذى كان قد أمضى شهور الحر في الجبل - وجدها عند عودته أكثر جاذبية من أيام شبابها العجيب عندما كانت في سن الخمسين .

بعد العديد من المحاولات الفاشلة ، استطاعت ماريا دوس برازيريس أن تجعل نوى يتعرف على قبرها من بين قبور التل المتشابهة . ثم إنها اجتهدت في تدريبه على البكاء على القبر الخاوى كي يعتاد ذلك بعد موتها . واصطحبته عدة مرات سيرا على الأقدام من منزلها إلى الجبانة محددة له علامات إرشادية كي يحفظ مسار حافلة «لاس رامبلاس» ، حتى اطمأنت إلى أنه أتقن الطريق وحده .

وفى يوم الأحد المخصص للاختبار النهائى ، فى الثالثة بعد الظهر ، خلعت عنه سترة الربيع - من ناحية لأن الصيف أصبح وشيكا ومن ناحية أخرى لكى لايستلفت النظر - وتركته وحده . رأته يبتعد صوب رصيف الظل ، يعدو عدوا خفيفا ومؤخرته مضمومة حزينة تحت ذيله المهتاج ، واستطاعت بعد جهد جهيد أن تحبس رغبتها فى البكاء - البكاء على نفسها وعليه وعلى سنين طويلة مرة من الأوهام المشتركة - حتى رأته ينحرف نحو البحر عند ناصية شارع «مايور» . بعد خمس عشرة دقيقة ، استقلت حافلة «لاس رامبلاس» من الميدان المجاور - ميدان «ليسب» - محاولة رؤيته من النافذة ، وبالفعل رأته - بين جموع الأطفال المتنزهين يوم الأحد - متباعدا وجادا ، ينتظر تغيير إشارة عبور المشاة فى شارع «جراثيا» . تنهدت :

- يا إلهى ، كم يبدو وحيدا !

اضطرت إلى انتظاره ساعتين تحت شمس «مونجوى» القاسية . حيث العديد من أهل الموتى عرفتهم قبل ذلك اليوم الجدير بكل ذكر ولكنها كادت لا تميز ملامحهم لأن ردحا طويلا من الزمن كان قد مضى منذ رأتهم أول مرة ، فما عادوا يرتدون ثياب الحداد ولا يلجأون إلى البكاء ، كما كانوا يضعون الزهور على القبور دون التفكير فى الموتى .

بعد ذلك بقليل وبعد أن انصرف الجميع ، سمعت زئيرا مدويا أفزع طيور النورس ثم رأت فى عرض البحر سفينة بيضاء عليها علم البرازيل وتمنت بكل جوارحها لو أحضرت لها خطابا من شخص مات من أجلها فى سجن «بيرنامبوكو» . بعد الخامسة بدقائق ، وقبل الموعد المحدد باثنتى عشرة دقيقة ، ظهر نوى فى التل يتساقط لعابه من النصب والقيظ ولكن بخيلاء الطفل المنتصر . فى تلك اللحظة زال فزع ماريا دوس برازيريس من عدم وجود

من يبكي على قـــبرها .

كان ذلك في الخريف التالي عندما بدأت تحس بإشارات نحسة لم تتمكن من استكناهها وإن زدات قلبها حزنا . عادوت تناول القهوة تحت أشجار السنط الذهبية في ميدان الساعة مرتدية معطفا ياقته من فرو ذيل الثعلب وقبعة زينت بزهور صناعية عادت فأصبحت على الموضة من فرط قدمها . شحذت غرائزها . وفي محاولة لتفسير ضيقها رصدت ثرثرات بائعات الطيور بشارع «لاس رامبلاس» وهمهمات الرجال في مواضع بيع الكتب ، والذين كانوا لأول مرة لايتحدثون عن كرة القدم ، وصمت مصابي الحرب الدفين وهم يلقون بكسرات الخبز إلى الحمام . وفي كل مكان وجدت للموت علامات صريحة . في أعياد الميلاد أضيئت المصابيح الملونة بين أشجار السنط وخرجت من الشرفات موسيقى وأصوات مرحة وغزا حشد من السياح بمعزل عن مصيرنا المقاهي القائمة في الهواء الطلق ، ولكن حتى في العيد كان ثمة نفس الشعور بالتوتر المكبوت الذي سبق سيطرة الفوضويين على الشوارع . وماريا دوس برازيريس التي عايشت تلك الحقبة – حقبة العواطف الكبرى – لم تستطع كبح جماح قلقها ، ولأول مرة أيقظتها مخالب الهلع من نومها ، ففي إحدى الليالي قتل رصاص رجال الأمن أمام نافذتها طالبا كان قد كتب على أحد الجدر بفرشة طلاء : «تحيا قطلونيا حرة» .

كانت قد عرفت هذا القلق مرة واحدة في طفولتها في ماناوس ، قبل الفجر بدقيقة واحدة ، حين توقفت أصوات الليل العديدة عن الصخب فجأة وتوقف فيضان المياة وتذبذب الطقس وغاص نهر الأمازون في سكون سحيق لا يعدله إلا سكون الموت . وسط ذلك التوتر غير المحتمل وفي آخر يوم جمعة من شهر أبريل ذهب كونت كاردونا لتناول العشاء في بيتها كالمعتاد .

بمرور الوقت تحولت زيارة الكونت إلى طقس من الطقوس . كان الكونت يصل في موعده بين السابعة والتاسعة مساء ومعه زجاجة شمبانيا محلية لفت في جريدة المساء حتى لا تسترعى انتباه أحد وصندوق من الكمأ المحشو ، وتعد له ماريا دوس برازيريس «كانيلوني» بالجيلاتين ودجاجة طرية في مرقتها – وهما الأكلتان المفضلتان لدى القطلونيين النبلاء أيام شبابها – وصينية بها فاكهة الموسم . وبينما تطهو طعام العشاء كان الكونت يجلس إلى الجراموفون ليستمع إلى تسجيلات تاريخية لمقتطفات من الأوبرات الايطالية بينما يحتسي على دفعات متباعدة كأسا واحدة من نبيذ «بورتو» لا تفرغ قبل انتهائه من سماع الاسطوانات .

بعد عشاء طويل تتخلله محادثة متأنية كانا يمارسان من الذاكرة حبا جلوسيا طالما ترك في كل منهما مسحة من الأسى . وقبل رحيله ، في عجلة من أمره دائما بسبب اقتراب منتصف الليل ، كان الكونت يترك خمسا وعشرين بزيتة تحت منفضة سجائر حجرة النوم ، وهو سعر ماريا دوس برازيريس عندما التقى بها لأول مرة في غرفة فندق بشارع «باراليلو» ، والشيء الوحيد الذي لم يمسه صدأ الزمن .

لم يسأل أي منهما نفسه مرة علام تأسست تلك الصداقة ؟ كانت ماريا دوس برازيريس تدين له ببعض صنيع ، فقد كان يسديها بعض النصح المفيد في إدارة ما ادخرته من مال ، وعلمها تقدير القيمة الحقيقية لعادياتها وكيف تفعل حتى لا يكتشف أنها مسروقة . لكن الأهم أنه هو الذي أرشدها الطريق إلى شيخوخة محترمة في حي «جراثيا» عندما قيل لها في الماخور الذي قضت فيه جل حياتها إنها لم تعد صالحة بمقاييس الذوق الحديث وأرادوا إرسالها إلى دار سرية للمسنين يعلمون الأطفال فيها ممارسة الحب مقابل خمس بزيتات . وهي بدورها كانت قد قصت على الكونت أن أمها باعتها في ميناء ماناوس وهي في

الرابعة عشرة من عمرها وأن ضابطا أول في مركب تركي ظل يأتيها بلا شفقة طوال رحلة عبور المحيط الأطلنطي ثم هجرها بدون مال أو لغة أو اسم في مستنقع أضواء شارع «باراليلو» . كان كلاهما يعي أن لا شيء يجمعه بالآخر لذا فان أقسى أوقاتهما وحدة كانت تلك التي تجمعهما معا ، ومع هذا لم يجرؤ أي منهما على النيل من سحر العادة .

ولم يكن ثمة مناص من نزول كارثة قومية كي يدركا معا إلى أي حد كان يكره كل منهما الآخر - ولكن بأي حنان ! - طيلة سنوات عديدة . ثم جاءت الشرارة . كان الكونت يستمع إلى أوبرا «لابوهيم» ، دويتو الحب ، غناء ليشا ألبانيزي وبينياميونوجيلي ، عندما وافته دفعة واحدة عدة أنباء من جهاز الراديو الذي كانت ماريا دوس برازيريس تستمع إليه في المطبخ . اقترب على أطراف أصابعه واستمع هو أيضا . كان الجنرال فرانشيسكو فرانكو ، ديكتاتور إسبانيا إلى الأبد ، قد اضطلع بمسئولية تقرير مصير ثلاثة من الانفصاليين الباسك حكم عليهم بالإعدام مؤخرا . تنهد الكونت بارتياح قائلا :

- سوف يعدمونهم إذن بلا رجعة . ذلك أن القائد رجل عادل .

حدجته ماريا دوس برازيريس بعيني كوبرا ملكية مشتعلتين وقد رأته على حقيقته : هرما ، حقيرا . رأت مقلتيه الجامدتين خلف نظارته الذهبية ، وأسنانا لأكل جيف ، ويدين مهجنتين لحيوان اعتاد الرطوبة والعتامة . قالت :

- ارج الله إذن ألا يحدث هذا ، لأنهم لو أعدموا واحدا فقط منهم سأدس لك سماً في الحساء .

تملك الرعب الكونت :

- ولمَ هذا ؟

- لأنني أنا أيضا عاهرة عادلة .

لم يعد كونت كاربونا بعد ذلك أبدا وتأكدت ماريا دوس برازيريس من أن آخر حلقة في حياتها قد أغلقت . لوقت قريب ، كانت تسخط إذا ترك أحد لها مقعده في الحافلة أو ساعدها في عبور الطريق أو أخذها من ذراعها لصعود الدرج ، بيد أنها انتهت ليس فقط إلى قبول ذلك بل إلى الرغبة فيه كضرورة مقززة . حينئذ طلبت عمل شاهد قبر لفوضوى بلا اسم أو تواريخ وبدأت تأوى إلى فراشها دون إغلاق مزلاج الباب حتى يتمكن نوى من الخروج بالنبأ إذا قضت نحبها وهي نائمة .

في يوم من أيام الآحاد ، بعد عودتها من المقابر وعند دخول المنزل ، التقت في بسطة السلم بالطفلة التي تسكن الشقة المقابلة . اصطحبتها إلى الشارع وحدثتها في أشياء عدة ببراءة جدة بينما كانت تراها تلاعب نوى كأنهما صديقان قديمان . في ميدان «ديامنت» (٦) ، وحسبما خططت من قبل ، اشترت لها آيس كريم . سألتها :

- أتحبين الكلاب ؟

- كثيرا

عندئذ اقترحت ماريا دوس برازيريس على الطفلة اقتراحا راود قلبها منذ زمن بعيد . قالت لها :

- إذا حدث لي أي شيء اعتني بنوى بشرط أن تتركيه حرا أيام الآحاد دون أن تقلقي عليه . هو يعرف ما يفعل .

سعدت الطفلة لذلك . أما ماريا دوس برازيريس فهي بدورها كانت عائدة إلى دارها بسعادة من انتهى من تحقيق حلم أنضجته السنون في قلبه . ولم يكن

---

(٦) ميدان دينامنت (Diamante): ميدان في قلب برشلونة ، له شهرة أدبية .

مرد عدم تحقيق ذلك الحلم تعب الشيخوخة أو تأخر الموت ، كما لم يكن تحقيقه قرارا اتخذته بنفسها . بل إن الحياة هى التى كانت قد اتخذت من أجلها ذلك القرار ذات مساء جليدى من شهر نوفمبر حين هبت زوبعة مفاجئة عند خروجها من الجبانة . كانت قد انتهت من كتابة الأسماء الثلاثة على الشواهد الثلاثة وتمشى فى طريقها صوب محطة الحافلات عندما ابتلت ملابسها تماما بسبب سقوط الدفعات الأولى من المطر . لم يسعفها الوقت للاحتماء بباب أى منزل من منازل حى قفر بدا غريبا عن المدينة بقبائه المتهدمة ومصانعه المغبرة ولوجود شاحنات ضخمة ضاعفت من رعبها من هطول المطر . بينما كانت تحاول تدفئة كلبها المبتل بجسدها رأت الحافلات المزدحمة وسيارات الأجرة الشاغرة وقد أطفئت لافتاتها ودون أن ينتبه أحد إلى ايماءات امرأة غارقة . وعندما ظنت أن من المستحيل حدوث المعجزة ، مرت فجأة سيارة فارهة ذات لون فولاذى شفقى لا يكاد يسمع لها أى صوت فوق الأسفلت الذى غمره ماء المطر . توقفت السيارة عند ناصية الشارع ثم عادت القهقرى إلى حيث كانت تقف هى ، أنزل زجاج السيارة بفعل السحر وعرض السائق عليها أنيقلها . قالت ماريا دوس برازيريس بأمانة :

– إنى ذاهبة بعيدا . لكنك إذا أوصلتنى إلى أقرب مكان سأشكر لك هذا الصنيع .

قال هو ملحفا :

– أخبرينى إلى أين تذهبين .

– إلى «جراثيا» .

ثم فتح باب السيارة دون أن يلمسه . قال :

– هو نفس طريقى ، اصعدى .

من داخل السيارة التى كانت لها رائحة الأدوية المحفوظة ، تحول المطر

إلى حادث عارض غير حقيقى وتبدل لون المدينة وشعرت هى بوجودها فى عالم غريب وسعيد وبلا معاناة . كان قائد السيارة يشق طريقه فى فوضى المرور بسلاسة يشوبها شىء خارق للعادة . كانت ماريا دوس برازيريس تشعر بالحرج ليس فقط لبؤسها الواضح بل بسبب الكلب البائس النائم فى حجرها .

- هذه سفينة . لم أر فى حياتى مثيلا لها ولا حتى فى الأحلام !

قالت ذلك لأنها شعرت بأن من واجبها أن تقول شيئا مناسبا .

- فى الواقع إن عيبها الوحيد أنها ليست سيارتى .

أجاب هو بلغة قطلونية متعثرة ثم أضاف بالاسبانية :

- قد لا يكفينى مرتب عمر بأكمله لشرائها .

تنهدت وقالت :

- أتخيل ذلك .

تفحصته بمواربة وقد شع اخضرارا لانعكاس أنوار لوحة التحكم عليه ، فتبينت أنه ليس سوى مراهق شعره قصير مجعد وملامحه برونزية رومانية . اكتشفت أنه لم يكن وسيما وإن كان له سحر خاص ، وأن سترته الجلدية الرخيصة البالية تناسبه تماما ، وأن أمه لا بد أن تسعد عندما تحس بعودته إلى البيت . لم يكن ثمة ما لا يؤكد أنه هو صاحب السيارة سوى يديه اللتين تشبهان يدى مزارع .

لم يعاودا الحديث طوال الطريق ، لكن ماريا دوس برازيريس أحست أيضا بمن يختلس إليها النظر عدة مرات ، وللمرة الثانية شعرت بالألم لأنها مازالت على قيد الحياة فى تلك السن . شعرت بأنها قبيحة ويرثى لها بمنديل المطبخ الذى لفت به رأسها بإهمال عندما هطل المطر وبمعطفها الخريفى الذى لم

يعنّ لها أن تغيره لأنها كانت تفكر فى الموت .

بدأ توقف المطر عندما وصلا حى «جراثيا» . كان الوقت ليلا ومصابيح الشارع مضاءة . طلبت ماريا دوس برازيريس من قائد السيارة أن يتركها عند ناصية قريبة . ولكنه أصر على توصيلها حتى باب بيتها ، بل إنه أوقف السيارة فوق الرصيف حتى يمكنها النزول دون أن تبتل . أطلقت الكلب وحاولت الخروج من السيارة بما يسمح لها جسدها من وقار ، وعندما التفتت لتشكر قائد السيارة اصطدمت بنظرة رجل جعلتها تفقد أنفاسها . احتملت تلك النظرة لحظة دون أن تفهم جيدا من كان ينتظر ماذا ؟ وممن ؟ عندئذ سألها بصوت طليق :

– أأصعد ؟

شعرت ماريا دوس برازيريس بالمهانة . قالت :

– أشكرك شكرا جزيلا أن أحضرتنى إلى هنا لكن لا أسمح لك أن تهزأ بى .

أجابها بجدية قاطعة :

– ليس لدى أى سبب كى أهزأ بأحد وخاصة بامرأة مثلك .

عرفت ماريا دوس برازيريس فى حياتها رجالا كثيرين مثل هذا الرجل ، وأنقذت من الانتحار آخرين أكثر جرأة منه ولكنها لم تكن قد جربت من قبل الخوف من اتخاذ القرار . سمعته يلحف دون أدنى تغير فى نبرة صوته :

– أأصعد ؟

نأت عنه دون أن تغلق باب السيارة وأجابته بالاسبانية لتتأكد من أنه سيفهمها :

– افعل ما يعنُّ لك .

دخلت الدهليز الذى يضيئه نور الشارع الشاحب المائل وبدأت صعود

الدرج وقد ارتعدت ركبتاها وخنقها خوف كان يمكن أن تتخيله ساعة الموت فقط . عندما توقفت أمام باب شقتها وهي ترتعش في اضطراب بحثا عن المفتاح في حقيبة يدها ، سمعت صفق بابي السيارة في الشارع . حاول نوى ، الذي كان قد سبقها ، النباح . نهرته بهمس محتضر : «صه» . في الحال تقريبا سمعت وقع الخطوات الأولى على السلم فخشيت أن ينخلع قلبها من مكانه . في أجزاء من الثانية راجعت تلك الرؤيا التي غيرت مسار حياتها طوال سنوات ثلاث وأدركت خطأ تفسيرها . قالت لنفسها في فزع : « يا إلهي . لم يكن الموت إذن » .

أخيرا ، اهتدت إلى ثقب المزلاج مستمعة الخطوات المعدودة في الظلام وتصاعد أنفاس شخص ما خائف مثلها يقترب . حينئذ أدركت أن انتظارها أعواما وأعواما وعذابها الطويل حبيسة العتامة لم يضيعا سدى ، ولو كان ذلك من أجل أن تعيش لحظة واحدة كتلك اللحظة .

مايو ١٩٧٩

الحكاية الثامنة

سبعة عشر
إنجليزيا مسموما

كان أول ما لاحظته السيدة برودنثيا لينيرو عندما وصلت ميناء نابولى أن له نفس رائحة ميناء ريواتشا . لم تقل ذلك لأحد بالطبع ، لأن أحداً ما كان سيفهمها فى عابرة المحيطات العتيقة المليئة بإيطاليين من بوينوس أيرس كانوا عائدين إلى وطنهم للمرة الأولى بعد انتهاء الحرب . على أية حال ، لم تكن تشعر ، وهى فى الثانية والسبعين من عمرها ، بذات شعور الوحدة والعزلة والرعب بعد ثمانية عشر يوماً قضتها فى رحلة بحرية سيئة بعيداً عن أهلها وبيتها .

مع بزوغ الفجر ، شوهدت أنوار اليابسة واستيقظ الركاب مبكرين يرتدون ملابس جديدة وقد ضاق القلب بتأخر الوصول . لذا أصبح يوم الأحد الأخير على ظهر السفينة كأنه اليوم الحقيقى الوحيد طوال الرحلة .

كانت السيدة برودنثيا لينيرو واحدة من قليل حضروا القداس . وعلى عكس الأيام السابقة على ظهر السفينة التى اتشحت فيها بما يشبه الحداد ، ارتدت ثوباً بنياً من القماش الخشن ونطاق سان فرانثيسكو فى خاصرتها وصندلاً من الجلد الخشن وبدت تلك الثياب كثياب الحجيج لولا أنها كانت جديدة .

هكذا كانت تدفع مقدماً : كانت قد نذرت لله ارتداء ذلك الزى السابغ إذا قدر لها السفر الى روما لرؤية الحبر الأعظم ، وهى الآن تشكر الله لأنه استجاب لدعواها . فى نهاية القداس ، أوقدت شمعة للروح القدس لما منحها من

شجاعة لتحمل أنواء الكاريبى وصلت صلاة من أجل كل واحد من أبنائها التسعة وأحفادها الأربعة عشر الذين كانوا فى تلك الأثناء يحلمون بها فى ليل ريواتشا العاصف .

حين صعدت إلى ظهر السفينة ، بعد الإفطار ، كانت الحياة على المركب قد تبدلت ، كانت الأمتعة مكومة فى صالة الرقص بين كافة أنواع الهدايا والتذكارات السياحية التى اشتراها الإيطاليون من أسواق الأنتيل السحرية ، وعلى طاولة حانة المركب كان ثمة قرد من « بيرنا مبوكو » حبيس قفص من الفولاذ المنقوش .

كان صباحاً ساطعاً فى أوائل شهر أغسطس ويوم أحد نموذجياً من أيام الصيف بعد الحرب ، يلوح الضوء فيها اكتشافا جديداً كل يوم ، وكانت السفينة الضخمة تتحرك فى بطء شديد كأنفاس المريض ، فى مستنقع شفاف .

لاحت قلعة دوقية « أنجوه » الغامضة لا تكاد ترى فى الأفق ، بيد أن المسافرين المطلين من شرفات السفينة زعموا رؤية المعالم المألوفة ، وكانوا يشيرون إليها دون أن يروها حقيقة ، صائحين فى بهجة لهجاتهم الجنوبية . لكن السيدة برودنثيا لينيرو التى عقدت صداقات حميمة على متن السفينة ، التى سهرت على نوم الأطفال بينما ذهب آباؤهم للرقص ، التى خاطت للربان زر سترته ، وجدت تلك المعالم غريبة عنها وبعيدة ، فقد اختفت الروح الاجتماعية والدفء الإنسانى اللذان أتاحا لها تجاوز حنينها إلى الماضى فى وسن القيظ الاستوائى .

اختفى الحب الخالد فى عرض البحر عند رؤية الميناء ، ورأت السيدة برودنثيا لينيرو ، التى لم تعتد تقلب طبيعة الشعب الإيطالى ، أن العيب لم يكن فى قلوب الآخرين بل فى قلبها ، لكونها الوحيدة الذاهبة وسط خضم من البشر

العائد. وفكرت فى أن تلك ربما كانت طبيعة كل الأسفار . كانت تستشعر ألم الغربة لأول مرة وهى تتأمل من الشرفة آثار عوالم كثيرة هلكت فى قاع الماء .

أفزعتها صرخة مرعبة صدرت عن فتاة بهية الهيئة كانت تقف إلى جوارها وتشير إلى القاع :

- Mamma mia ، انظروا هناك !

كان ثمة غريق . رأته السيدة برودنثيا لينيرو يطفو على ظهره متأرجحاً، كان رجلاً كهلاً وأصلع وله وسامة أصيلة من نوع خاص ، وكان لعينيه الشاخصتين نفس لون السماء فى الفجر ، ويرتدى بذلة كاملة بصدارة زركش وحذاء لامعاً وغردينيا متفتحة فى عروته . أمسكت يده اليمنى بمكعب مغلف فى ورق هدايا وقبضت أصابعه المتخشبة الرقيقة على شريط العلبة ، كان الشئ الوحيد الذى تمكن من التعلق به حين حضره الموت .

قال أحد ضباط السفينة :

– يبدو أنه سقط من حفلة زفاف . يحدث هذا كثيراً فى الصيف فى هذه الأنحاء .

كانت صورة فورية ، لأنهم حينئذٍ دخلوا البوغاز ، وشدت انتباه الركاب دواعٍ أخرى أقل كآبة . لكن السيدة برودنثيا لينيرو ظلت تفكر فى الغريق ، الغريق البائس وسترته التى كانت تتراقص فى مؤخرة السفينة .

خرجت قاطرة متهالكة للقاء السفينة لحظة دخولها الميناء ، وقادتها بين حطام العديد من السفن الحربية التى دمرت أثناء الحرب . وكلما تقدمت السفينة تشق طريقها بين الحطام الصدئ تحولت المياه الى مستنقع من الزيت ، وفاقت شدة الحر قيظ ميناء ريواتشا فى الثانية بعد الظهر .

على الجانب الآخر من المضيق ، ظهرت فجأة المدينة كاملة تسطع تحت شمس الحادية عشرة ، بقصورها الخيالية وأكواخها العتيقة الملونة والمزدحمة فى السفوح . وتصاعدت حينئذ من قاع الماء رائحة كريهة لاتطاق ذكرت السيدة برودنثيا لينيرو برائحة تعفن سرطان البحر فى فناء بيتها .

خلال مناورة السفينة ، تعرّف الركاب على أقاربهم الملوحين لهم فرحاً فى زحام الرصيف . كنَّ نسوة فى خريف العمر تختنق صدورهن المضطرمة داخل ثياب الحداد ، وأطفالهن ، أبهى وأكثر أطفال الأرض عدداً ، أزواجهن، ضئيلى الجسم والمهذبين ، ذلك النوع الخالد من الرجال الذين يقرأون الجريدة بعد زوجاتهم ويرتدون زى الكتبة الصارم برغم الحر .

وسط ضجيج السوق ذاك ، أخرج رجل شيخ ذو هيئة بائسة ومعطف شحاذ ، أخرج ملء يديه الاثنتين حفنات وحفنات من صغار الفراخ من جيبه فملأت الرصيف فى لحظة وهى تصيىء كالمجنونة ، ولما كانت مجرد حيوانات سحرية ظل الكثير منها يجرى حياً بعد أن داستها أقدام الزحام بمعزل عن المعجزة . كان الساحر قد وضع قبعته على الأرض لكن أحداً لم يلق له من فوق ظهر السفينة بقطعة نقود واحدة كحسنة .

بينما كانت السيدة برودنثيا لينيرو مأخوذة بذلك العرض العجيب ـ الذى بدا وكأنه أقيم على شرفها إذ كانت الوحيدة التى احتفت به ـ لم تنتبه إلى اللحظة التى أنزل فيها السلم وغزا سيل بشرى السفينة يعوى فرحاً ويندفع اندفاع القراصنة ساعة الهجوم .

شعرت هى بنفس خطر الموت بلا مجد ، كصغار الفراخ على الرصيف ، وقد ذعرت للهياج ولرائحة البصل المنبعثة من كل تلك الأسر مجتمعة وفى الصيف، وبلغتها لكزات جماعات الحمالين الذين كانوا يتخاطفون أمتعة

المسافرين . حينئذ جلست فوق حقيبتها الخشبية ذات الزوايا من الصفيح المطلي، وظلت ساكنة تصلي سلسلة لا تنتهي من الصلوات ضد وسوسة الشيطان والشرور في أرض الكفار .

ألفاها هناك ربان السفينة عندما انتهى الطوفان ولم يبق سواها في الصالون الخرب .

قال لها ملاطفاً :

– لا ينبغي أن يبقى أحد هنا في هذه الساعة .

أأستطيع معاونتك في شيء ؟

قالت له :

– يجب أن أنتظر القنصل .

هكذا كان الأمر . فقبل أن تبحر بيومين أرسل ابنها الأكبر برقية إلى صديقه قنصل نابولي يرجوه أن ينتظرها في الميناء ويساعدها في إنهاء إجراءاتها لتواصل رحلتها إلى روما ، وأرسل له اسم السفينة وساعة الوصول وأشار إليه أيضا بأنه يستطيع التعرف عليها بثياب سان فرانثيسكو التي سترتديها عند النزول من السفينة . بدت هي صارمة فيما قالت فسمح لها الربان بالبقاء وقتاً أطول على الرغم من أنها كانت ساعة غداء طاقم السفينة ، وكانوا قد وضعوا الكراسي فوق الموائد ويقومون بغسل ظهر المركب بدلاء الماء . اضطروا في عدة مرات إلى نقل الحقيبة من مكانها حتى لا تبتل ، ولكنها كانت تغير مكانها دون أن تحرك ساكناً ودون أن تقطع صلواتها ، حتى أخرجوها من صالات الترفيه وانتهت جالسة في لهيب الشمس بين زوارق الإنقاذ .

عاد الربان فوجدها هناك قبل الثانية بعد الظهر بقليل ، تتصبب عرقاً داخل ثوب التبتل وتصلي صلاة متواصلة بلا أمل ، لأنها كانت مذعورة وتعسة وتحبس رغبتها في البكاء في صعوبة .

قال لها الربان بغير ملاطفة هذه المرة :

- لا طائل تحت هذا . حتى الملائكة تأخذ أجازة في شهر أغسطس .

وشرح لها أن نصف إيطاليا تجلس على الشاطيء في ذلك الوقت من السنة خاصة أيام الآحاد . كان من المحتمل ألا يكون القنصل في أجازة بحكم طبيعة عمله لكنه من المؤكد أنه لن يفتح مكتبه قبل يوم الاثنين . لذا فمن الأرجح أن تذهب إلى فندق لتستريح تلك الليلة وفي اليوم التالي بوسعها أن تخابر القنصلية فرقم هاتفها موجود في الدليل بلا شك . وهكذا اضطرت السيدة برودنثيا لينيرو إلى قبول ذلك الرأي وعاونها الضابط في إنجاز إجراءات الدخول والجمارك وتحويل العملة ، ووضعها داخل سيارة أجرة مشيراً إلى السائق في خجل أن يقلها إلى فندق « محترم » .

أخذت السيارة المتهالكة ذات الهيئة الجنائزية تتأرجح في سيرها وتتقدم بالشوارع المقفرة . فكرت السيدة برودنثيا لينيرو للحظة في أنها والسائق هما الكائنان الوحيدان على قيد الحياة في مدينة أشباح تتدلى من الأسلاك في وسط الشارع ، وفكرت أيضاً في أن رجلاً ثرثاراً على ذلك النحو وبتلك الحمية لن يجد متسعاً من الوقت كي يلحق الضرر بامرأة بائسة ، وحيدة ، واجهت أخطار المحيط من أجل أن ترى البابا .

في نهاية متاهة من الشوارع ، ظهر البحر مرة أخرى . واصلت سيارة الأجرة قفزها على امتداد شاطيء متقد وموحش اصطف على جانبه عدد من

الفنادق الصغيرة متنافرة الألوان . لم يتوقف أمام أى منها بل اتجه مباشرة إلى أقلها رونقاً ، إلى فندق قائم وسط حديقة عامة بها نخيل ضخم ومقاعد خضراء اللون . وضع السائق الحقيبة على الرصيف الظليل ، وإزاء حيرة السيدة برودنثيا لينيرو أكد لها أنه أكثر الفنادق « احتراماً » فى نابولى .

رفع الحمال الوسيم والرقيق الحقيبة على كتفه واضطلع بأمرها . قادها حتى المصعد ذى الشباك المعدنية والذى حشر عشوائياً فى حيز السلم وشرع يغنى أغنية لـ « بوتشينى » بأعلى صوته وبإصرار يثير القلق . كانت بناية قديمة من تسعة طوابق مرممة ، فى كل واحد منها فندق مختلف ، وسرعان ما شعرت السيدة برودنثيا لينيرو ، فى لحظة وهم ، بأنها كانت تصعد ببطء حبيسة قفص دجاج فى مركز سلم من الرخام الملوى يباغت الناس فى منازلهم وقد داخلتهم شكوك عميقة بملابسهم الداخلية الممزقة وجشائهم الحامضى .

توقف المصعد عند الطابق الثالث بقفزة فأمسك الحمال عن الغناء وفتح الباب الحديدى ذا المعينات المتحركة وأوضح للسيدة برودنثيا لينيرو ، بإيماءة احترام لطيفة ، أنها وصلت بيتها .

رأت هى مراهقاً هزيلاً خلف طاولة من الخشب المرصع بالزجاج الملون فى البهو ، ونباتات ظل فى أصص نحاسية . أحبته فى الحال ، فقد كان له نفس شعر حفيدها الأصغر المجعد الملائكى ، وأحبت اسم الفندق المكتوب بحروف كبيرة على لوحة من البرونز ، وأحبت رائحة حامض الفنيك ، وأحبت نباتات السرخس المعلقة ، والسكون ، وزنابق ورق الحائط الذهبية .

خطت خطوة واحدة خارج المصعد فانتفض قلبها . كانت مجموعة من السياح الإنجليز بسراويلهم القصيرة وصنادل البحر تنعس فى صف مقاعد الانتظار الطويل . كانوا سبعة عشر ، جلوساً فى نظام متناسق ، كأنهم شخص

واحد يتكرر عدة مرات فى قاعة مرايا . رأتهم السيدة برودنثيا لينيرو بنظرة خاطفة دون أن تميز بينهم ، والشيء الوحيد الذى ترك فيها أثراً قوياً كان ذلك الصف الطويل من الركب الوردية التى تراءت كأنها خنازير علقت على خطاطيف فى محل جزارة . لم تتقدم خطوة واحدة ناحية طاولة الفندق ، بل تراجعت مذعورة ودخلت المصعد مرة أخرى . قالت :

- هيا بنا إلى طابق آخر .

- هذا هو الفندق الوحيد الذى به مطعم ياسيدتى .

- لايهم .

أومأ الحمال إليها موافقاً وأغلق باب المصعد وواصل غناء الجزء المتبقى من الأغنية حتى بلغا فندق الطابق الخامس وكانت صاحبته سيدة ربيعية تتحدث إسبانية سهلة . لم يكن ثمة أحد فى مقاعد البهو .

وبالفعل ، لم يكن به مطعم ، لكن الفندق كان على اتفاق مع مطعم قريب ليستقبل عملاءه بأسعار خاصة . لذا قررت السيدة برودنثيا لينيرو البقاء فيه لليلة واحدة بعد أن أخذتها بلاغة وملاحة صاحبته ولشعورها بالراحة لعدم وجود أى إنجليزى ذى ركبتين ورديتين ينعس فى البهو .

فى الثانية بعد الظهر ، كان شيش حجرتها مسدلاً ، والضوء الخافت يحفظ طزاجة وسكون زهور خفية ، وكانت تناسب البكاء . ما أن خلت إلى نفسها ، أغلقت السيدة برودنثيا لينيرو مزلاجى الباب وتبولت للمرة الأولى منذ الصباح ببطء وصعوبة جعلاها تستعيد هويتها المفقودة خلال الرحلة . ثم خلعت نعليها ونطاقها واستلقت على جانبها الأيسر فى الفراش الكبير الواسع والموحش وأطلقت نبع دموعها الحبيسة طوال اليوم أيضاً .

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى تخرج فيها من ريواتشا فحسب بل هى إحدى المرات القليلة التى خرجت فيها من بيتها بعد أن تزوج أولادها ورحلوا وبقيت هى وحيدة بصحبة هنديتين حافيتين ترعى جسد زوجها ، ترعى جسداً بلا روح . وانقضى نصف عمرها فى حجرة نومها فى مواجهة بقايا الرجل الوحيد الذى أحبته والذى ظل رهين السبات على مدى ما يقرب من ثلاثين عاماً ممدداً على فراش حبه فى أيام الشباب ، على مرتبة من فرو «جدْى» .

فى أكتوبر الماضى ، فتح المريض عينيه فى نوبة مفاجئة من الوعى وتعرف على أهله وطلب منهم أن يستدعوا مصوراً . أحضروا مصور الحديقة القريبة بآلته الضخمة ذات المنفاخ والذراع الأسود اللون ولوحة الماغنيسيوم للصور العائلية . وأدار المريض بنفسه التقاط الصور . قال : « صورة من أجل برودنثيا لما منحتنى من حب وسعادة » . والتقطت الصورة مع أول وهج ماغنيسيوم . ثم أضاف : « والآن : صورتين أخريين من أجل ابنتىّ الحبيبتين برودنثيتا وناتاليا » . التقطت الصورتان . ثم قال : « وصورتين أخريين من أجل ولدى الذكرين قدوة العائلة بحنانهما وحكمتهما » . وهكذا حتى نفد الورق ، واضطر المصور إلى الذهاب إلى منزله ليحضر المزيد .

فى الرابعة بعد الظهر ، وعندما استحال التنفس بسبب دخان الماغنيسيوم ولازدحام الحجرة بالأهل والأصدقاء والمعارف الذين ذهبوا إلى هناك ليحصلوا على نسخ من صورهم ، بدأ الإغماء ينتاب المريض على فراشه ، ورحل وهو يودع الجميع بيده كأنما يمحو نفسه من العالم من شرفة سفينة .

لم يكن موته راحة للأرمل كما توقع الجميع . بل على العكس من ذلك ، بقيت حزينة حتى اجتمع أولادها يسألونها كيف يمكنهم أن يخففوا من أحزانها ،

فأجابتهم بأنها لا ترغب إلا في الذهاب إلى روما ورؤية البابا . ونبهتهم :

- سأذهب وحدى وبزى سان فرانثيسكو .. إنه نذر !

كانت متعة البكاء هي خير ما تبقى لها من ليالي السهر . في السفينة ، عندما لزم عليها مشاركة أختين من رهبانية سانتا كلارا في قمرتها ، كانت تلجأ إلى دورة المياه لتبكي دون أن يراها أحد . وهكذا بكت ماعنّ لها في غرفة الفندق بنابولي ، أول مكان تجد فيه راحتها منذ أن تركت ريواتشا ، وكان بوسعها أن تستمر في البكاء حتى اليوم التالي ، موعد قيام قطار روما ، لولا أن طرقت صاحبة الفندق بابها في السابعة مساء لتبلغها بأن العشاء سيفوتها لو لم تسرع في الذهاب إلى المطعم في موعده .

رافقها موظف الفندق حتى المطعم . هبت نسائم منعشة من البحر وكان بعض المصطافين لا يزالون على الشاطيء تحت شمس السابعة الشاحبة . وسارت السيدة برودنثيا لينيرو في إثر موظف الفندق بشوارع وعرة وشديدة الانحدار وضيقة وفي سبيلها إلى القيام من قائلة الأحد . وجدت نفسها فجأةً تحت عريش ظليل وبين موائد طعام عليها مفارش ذات مربعات حمراء وزجاجات مخللات تعمل عمل المزهريات بها زهور من ورق . وجلس هناك ، في تلك الساعة المبكرة ، عمال المطعم وقس بائس يأكل خبزاً وبصلاً في ركن منزوٍ .

عند دخولها ، أحست بنظرات الآخرين إلى ثوبها البنيّ اللون لكنها لم تهتم بذلك لأنها كانت تدرك أن مظهرها السخيف كان جزءاً من كفارتها . في المقابل ، أثارت فتاة المطعم في نفسها نحواً من الشفقة لأنها كانت شقراء جميلة وتتحدث كأنها تغني ، وفكرت في أن الأمور لا بد أنها تسير على أسوأ وجه في إيطاليا إذ اضطرت فتاة كتلك أن تخدم في مطعم . بيد أنها شعرت بالراحة تحت

شجرة الكرم المزدهرة ، وأيقظت رائحة الغار فى المطبخ شهيتها المؤجلة بسبب قلقها طوال اليوم . ولأول مرة منذ أمد طويل ، لم تداخلها رغبة فى البكاء .

لكنها لقيت عناء جديداً عند تناول عشائها . فمن ناحية ، وجدت مشقة فى التفاهم مع الفتاة الشقراء رغم ملاحتها وصبرها ، ومن ناحية أخرى ، كان اللحم الذى قدم لها لحم عصافير مغردة كتلك التى تربى فى أقفاص فى ريواتشا وكان اللحم الوحيد المتاح . حاول القس الذى كان يأكل فى مكان منزو ، وقام بالترجمة بينهما ، أن يفهمها أن متاعب الحرب لم تنته بعد فى أوربا وأنها يجب أن تعتبر وجود عصافير جبلية للأكل معجزة . ولكنها رفضتها . قالت :

– إن آكل هذه العصافير فكأننى أكلت ولداً من أولادى .

اكتفت بحساء الشعرية وطبق من الكوسة المسلوقة بشرائح من شحم خنزير زنخ وقطعة خبز كالرخام .

اقترب منها القس واستعطفها أن تدعوه إلى تناول فنجان من القهوة ثم جلس معها .

كان يوغوسلافياً عمل مبشراً فى بوليڤيا ويتحدث إسبانية وعرة ومعبرة . رأت فيه السيدة برودنثيا لينيرو رجلاً مبتذلاً يفتقر إلى التسامح ، ولا حظت أن له يدين حقيرتين وأظافر متشققة قذرة وأنفاسا برائحة البصل النفاذة كأنها جزء من شخصيته . لكنه ، رغم كل شيء ، كان فى خدمة الرب وكان من دواعى سرورها أن تجد من تتحدث إليه وهى بعيدة هذا البعد عن الديار .

تحادثا فى أناة ، بمعزل عن جلبة الاصطبل التى أخذت تحاصرهما كلما شغلت الموائد الأخرى . خلصت السيدة برودنثيا لينيرو إلى رأى قاطع فى

إيطاليا : لا تروقها . ليس لأن رجالها مستغلون بعض الشيء ، وهو ما كان كافياً؛ وليس لأنهم يأكلون العصافير ، وهو ما رأته إفراطاً ؛ بل لسوء ما جبلوا عليه إذ يتركون الغرقى يطفون على غير هدى .

حاول القس أن يفند رأيها ، بعد أن طلب قدحاً من العرق علاوة على القهوة . فأثناء الحرب ، نظمت خدمة فعالة لإنقاذ العديد من الغرقى الطافين صباحاً في خليج نابولي والتعرف على جثثهم ودفنهم في أرض مسيحية . ثم اختتم عرضه قائلاً :

– يعي الإيطاليون أن ثمة حياة واحدة ويحاولون أن يحيوها على خير وجه وجعلهم ذلك عقلانيين وهوائيين معاً . بيد أنه أبرأهم من القسوة .

قالت هي :

– لكن أحداً لم يحاول إيقاف السفينة ، مجرد محاولة .

قال القس :

– ليس عليهم إلا إبلاغ سلطات الميناء عن طريق الراديو ويقيني أنهم انتشلوا الجثة ودفنوها باسم الرب .

عكر النقاش مزاجيهما معاً . كانت السيدة برودنثيا لينيرو قد انتهت من عشائها ، وانتبهت عندئذ إلى أن جميع الموائد قد شغلت ، وجلس على أقربها اليها سائحون شبه عراة من بينهم بعض العشاق يتبادلون القبل بدلاً من الطعام . وعلى الموائد القريبة من طاولة المطعم ، جلس أهل الحي يلعبون الزهر ويشربون نبيذاً لا لون له .

أدركت السيدة برودنثيا لينيرو أن ليس ثمة سوى سبب واحد لتواجدها

فى ذلك البلد الكريه .. سألته :

- هل تعتقد أن من العسير رؤية البابا ؟

أجابهـا القس بـأن ذلـك مـن أيسـر الأمـور خـاصـة فى الصـيف ، فى « كاستلجندولفو » ، حيث يستقبل البابا الحجاج القادمين من كافة أنحاء العالم، فى لقاء عام . وكان رسم الدخول زهيداً جداً : عشرين ليرة .

سألته هى :

- وكم يتقاضى ليسمع اعترافى ؟

قال فى شئ من الاستنكار :

- لا يسمع قداسة البابا اعتراف أحد فيما عدا الملوك بالطبع .

قالت هى :

- لا أدرى لم يرفض هذا الصنيع لا مرأة بائسة قادمة من بلد بعيد ؟

أجاب القس :

- حـتى بعض الملوك ، رغم أنهم ملوك ، لقـوا ربهم فى انتظاره . لكن أخبرينى : لا بد أن يكون ذنبك رهيباً حتى تتجشمى وعثاء هذا السفر كى يسمع قداسة البابا اعترافك فحسب !

فكرت السيدة برودنثيا لينيرو فى ذلك لبرهة ثم رآها القس تبتسم لأول مرة . قالت :

- بحق العذراء الطاهرة ، يكفى أن أراه .

ثم أضافت وقد زفرت زفرة كأنها تصدر من القلب :

- كان هذا حلم حياتي .

في حقيقة الأمر ، كانت لاتزال خائفة وتعسة ولاتنشد سوى الرحيل في التو .. ليس من نابولي وحدها ، وإنما من إيطاليا قاطبة . ويبدو أن القس اعتبر أن تلك المهووسة لن تعود عليه بنفع آخر ، إذ تمنى لها حظاً موفقاً وذهب إلى مائدة أخرى يسألها ثمن قدح من القهوة .

عندما تركت السيدة برودنثيا لينيرو المطعم ، ألفت المدينة وقد تبدلت حالها . فاجأها ضوء الشمس في التاسعة ليلاً وذعرت للزحام الصاخب الذي غزا الطرقات مع نسائم المساء الرطبة ، وضاقت الأنفس بدوي الدراجات النارية المحمومة ، يقودها رجال عراة الصدور ، خلفهم نساؤهم الحسناوات يحتضن خواصرهم ، ويشقون طريقهم في صعوبة بين الخنازير المعلقة وموائد بيع البطيخ .

كان جواً بهيجاً وإن عنّ للسيدة برودنثيا لينيرو نذير شؤم . ضلت طريقها . قادتها قدماها دون أن تدري إلى شارع غريب جلست به نسوة مكفهرات أمام دورهن ذات الأنوار الحمراء والمتقطعة تسببت لها في رعدة ذعر . تعقبها رجل مهندم ، يلبس خاتماً من الذهب الخالص ويضع ماسة في ربطة عنقه ، لعدة مربعات قائلاً شيئاً بالإيطالية ثم بالإنجليزية والفرنسية . وحين لم ينل منها رداً ، أراها كارت بوستال من علبة أخرجها من جيبه ، وكفتها نظرة خاطفة ليس أكثر كي تدرك أنها كانت تجتاز الجحيم .

فرت مذعورة . وفي نهاية الشارع ، عادت فرأت البحر الشفقي بذات رائحة حيوانات البحر العفنة في ميناء ريواتشا فعاد قلبها إلى مكانه . تعرفت على الفنادق ذات الألوان المتنافرة في مواجهة الشاطئ المقفر وسيارات الأجرة

الجنائزية وألق أول نجمة فى السماء الرحيبة تشع كالماس . فى نهاية الخليج ، رأت السفينة التى قدمت فيها ، وحيدة ، عملاقة ، مضيئة ، وأدركت أن علاقتها بحياتها قد انتهت . من هناك ، انحرفت يساراً ، غير أنها لم تتمكن من مواصلة السير ، فقد وجدت زحاماً شديداً ودورية شرطة تحظر دخول المارة ، وصفاً من سيارات الإسعاف على أهبة الاستعداد أمام بناية فندقها .

اعتلت السيدة برودنثيا لينيرو أكتاف المتجمهرين ، وحينئذ رأت السياح الإنجليز من جديد . كانوا يخرجونهم على نقالات الإسعاف ، واحداً تلو الآخر ، وكانوا جميعهم جامدين ، أجلاء ، كأنهم نفس الشخص يتكرر عدة مرات ، بملابس العشاء الكاملة : سراويل من قماش الفانلة ، ورباط عنق بخطوط مائلة ، وسترة سوداء تحمل شعار Trinity College منقوشاً على جيب الصدر . أخذ الجيران المطلون من الشرفات والفضوليون المحاصرون فى الشارع يعدونهم فى صوت واحد ، كما يحدث فى ملاعب الكرة ، كلما أخرجوا عدداً منهم . كانوا سبعة عشر ، أدخل كل اثنين منهم فى عربة إسعاف وذهبوا بهم مع دوى أبواق الحرب .

صعدت السيدة برودنثيا لينيرو فى المصعد المزدحم بعملاء فنادق أخرى يتحدثون لغات غير مفهومة ، وقد ذعرت لذلك الكم من الأحداث المروعة . توقف المصعد بكل الطوابق فيما عدا الطابق الثالث الذى ظل مفتوحاً ومضاء برغم عدم وجود أحد خلف طاولة الاستقبال ولا على مقاعد البهو حيث رأت من قبل ركب سبعة عشر إنجليزياً نائماً . كانت صاحبة فندق الطابق الخامس تقص الكارثة فى اهتياج لا هوادة فيه .

وقالت للسيدة برودنثيا لينيرو بالإسبانية :

– لقد ماتوا جميعاً . أصيبوا بالتسمم بحساء المحار في العشاء . أتتصورين : محار في أغسطس ؟

سلمتها مفتاح غرفتها دون المزيد من الاهتمام بينما كانت تقول لعملاء آخرين بلهجتها : « لأن ليس لدينا مطعم ، كل من يخلد إلى نومه يطلع عليه النهار حياً »

مرة أخرى ، أغلقت السيدة برودنثيا لينيرو مزلاجي غرفتها ، وقد خنقتها الدموع، وسدت الباب بالمنضدة والمقعد وأخيراً وضعت فوقهما حقيبتها كمتراس لا يقهر ضد رعب تلك البلاد التي تقع فيها كل تلك الحوادث معاً . ثم ارتدت قميص نوم أرمل واستلقت على ظهرها في الفراش وصلت من أجل الضحايا ، صلت على أرواح سبعة عشر إنجليزيا مسموماً .

إبريل ١٩٨٠

الحكاية التاسعة

صيف السيدة
فوربس السعيد

فى المساء ، عند عودتنا إلى المنزل ، وجدنا ثعباناً بحرياً ضخماً مرشوقاً فى إطار الباب ، كان أسود وفوسفورياً ويبدو كرقية غجرى ، بعينيه اللامعتين وأسنان المنشار فى فكيه المفغورين .

كنت ، فى ذلك الوقت ، فى التاسعة من عمرى وشعرت برعب هائل إزاء ذلك الظهور المخيف فانحبس صوتى . أما أخى الذى يصغرنى بعامين فقد ترك مستودعات الأكسچين والقناعين وزعانف الغطس وفر هارباً يصرخ من الهلع . سمعته السيدة فوربس من السلم الملتوى الذى يرتقى رصيف الجسر حتى المنزل ولحقت بنا لاهثة وقد احتقن وجهها ، لكنها ما أن رأت الحيوان المصلوب بالباب حتى أدركت سبب هلعنا . كانت تقول إنه عند وجود طفلين معاً فكلاهما مذنب لما اقترفه أى منهما ، لذا أنبتنا لصراخ أخى وظلت تعاتبنا لعدم تماسكنا .

خاطبتنا بالألمانية ، لا بالإنجليزية كما ينص عقدها ، ربما لأنها هى أيضاً كانت مذعورة وترفض قبول ذلك . وما أن استعادت أنفاسها حتى آبت إلى إنجليزيتها الوعرة وإلى وسوستها التربوية ، قالت لنا :

– إنها شيقة إغريقية ، هكذا سميت لأنها حيوان مقدس عند قدماء الإغريق.

فجأة ، ظهر أوريستى ، فتى البلدة الذى كان يعلمنا الغطس فى المياه الغائرة ، ظهر خلف أشجار الكبر . كان يضع قناع الغوص فوق جبهته ويرتدى لباس بحر رقيقاً جداً وحزاماً جلدياً به ست مدى من أشكال وأحجام مختلفة ،

فلم تكن لديه طريقة أخرى للصيد تحت الماء سوى مصارعة الحيوانات وجهاً لوجه .

كان في نحو العشرين من عمره ، يقضي وقتاً أطول في أعماق البحر منه على ظهر اليابسة ، ويبدو هو نفسه كحيوان بحرى تلطخ جسده دائماً بشحم محرك الزورق . قالت السيدة فوربس عندما رأته أول مرة أنها لم تتخيل بشراً بذاك البهاء . بيد أن وسامته لم تجنبه شر حدتها واضطر هو أيضاً إلى أن تلقى توبيخاً بالإيطالية لتعليقه الشيقة بالباب بلا أى تفسير آخر سوى بث الرعب في قلبي الطفلين .

بعد ذلك ، أمرته السيدة فوربس بإنزاله بالاحترام الواجب لمخلوق أسطورى وأمرتنا بارتداء ملابسنا للعشاء .

فعلنا ذلك على الفور محاولين ألا نرتكب خطأ واحداً لأننا ، بعد أسبوعين تحت رعاية السيدة فوربس ، كنا قد تعلمنا أنه لم يكن هناك ما هو أشق من الحياة . بينما نغتسل في الحمام المظلم ، فطنت إلى أن أخى ما زال يفكر في الشيقة . قال لى : « كانت لها عينا بشر » . كنت متفقاً معه ، لكننى أوحيت إليه بعكس ذلك وعرجت على موضوع آخر حتى انتهيت من استحمامى ، فطلب منى أن أظل معه لأصاحبه . قلت له :

– ما زلنا في وضح النهار .

فتحت الستائر . كنا في أوج شهر أغسطس ، وعبر النافذة ، تراءى الوادى القمرى المتقد حتى الجانب الآخر من الجزيرة وكذا الشمس لا تتحرك في السماء .

قال أخى :

– ليس هذا هو السبب ، بل إننى أخشى أن ينتابنى خوف .

ومع هذا ، عندما بلغنا المائدة ، بدا هادئاً ، شديد العناية بكل ما يفعل حتى نال تهنئة خاصة من السيدة فوربس ونقطتين أخريين فى حساب الأسبوع. لكنها خصمت نقطتين من الخمس التى فى جعبتى لأننى انسقت إلى تعجلى فوصلت حجرة الطعام ألهث . كانت كل خمسين نقطة تخول لنا حق تناول كمية مضاعفة من الحلوى ، بيد أن أياً منا لم يتجاوز قط حد الخمس عشرة نقطة . وكان ذلك مؤلماً حقاً لأننا لم نذق فيما بعد أحلى من « بودنج » السيدة فوربس .

قبل العشاء ، كنا نصلى وقوفاً أمام الأطباق الخالية . لم تكن السيدة فوربس كاثوليكية لكن عقدها ينص على أن تجبرنا على الصلاة ست مرات كل يوم ، وكانت قد تعلمت صلواتنا لتكمل شروط العقد ، ثم كنا نجلس ثلاثتنا ونحبس أنفاسنا بينما تراقب هى حتى أشد أفعالنا تفاهة . وعندما يبدو كل شئ كاملاً ، حينئذ فقط تدق الجرس الصغير فتدخل فولڤيا فلامينيا الطاهية ، بحساء الشعرية الخالد فى ذلك الصيف المقيت .

فى بداية الأمر ، عندما كنا وحدنا برفقة أبوينا ، كان تناول الطعام بمثابة العيد . وكانت فولڤيا فلامينيا تقدم لنا الطعام وهى تقرقر حول المائدة وبميل طبيعى إلى الفوضى يبهج الحياة ، وحين تتم ذلك كانت تجلس إلى المائدة معنا وتنتهى إلى تذوق القليل من أطباق الجميع . ولكنها منذ أن اضطلعت السيدة فوربس بأمرنا كانت تقوم على خدمة المائدة فى صمت عكر وكان بوسعنا سماع كركرة الحساء فى القدر .

كنا نتناول العشاء وأحبالنا الشوكية ملتصقة بظهر الكرسى ، نمضغ الطعام عشر مرات على جانب واحد من الفك وعشر أخرى على الجانب الآخر ،

دون أن نحول نظرنا عن المرأة الخريفية الحديدية الشاحبة وهى تردد عن ظهر قلب دروس قواعد اللياقة التى كانت كقداس الأحد ، ولكن بلا أنس الناس وهم يغنون .

في اليوم الذى وجدنا فيه الشيقة معلقة بالباب ، حدثتنا السيدة فوربس عن واجبنا نحو الوطن . بعد الحساء ، وفى مناخ أشاعت فيه التوتر نبرة صوت المربية ، قدمت لنا فولڤيا فلامينيا شرائح من لحم أبيض ذى رائحة لذيذة شويت على الفحم . فى ذلك الحين ، كنت أفضل الأسماك على أى طعام مصدره اليابسة أو السماء ، كما أثلجت صدرى ذكرى منزلنا بجوا كاميال لكن أخى رفض الطعام دون أن يصيب منه شيئاً . قال :

– لا أحبه .

قطعت السيدة فوربس الدرس وقالت له :

– لا تستطيع أن تتحقق من ذلك وأنت لم تذقه .

وحدجت الطاهية بنظرة قلقة جاءت متأخرة . قالت له فولڤيا فلامينيا :

– إن الشيقة أفضل سمك فى العالم ، جربه وسترى .

لم تحرك السيدة فوربس ساكناً وقصت علينا بطريقتها القاسية أن الشيقة كانت فى القديم طعام الملوك وأن المحاربين كانوا يتخاطفون مرارتها لأنها تمنحهم شجاعة خارقة للعادة . ثم أعادت على مسامعنا ، كما فعلت فى العديد من المرات وفى حيز وجيز جداً من الوقت ، أن الذوق السليم ليس وراثيا ولم تكن له مرحلة معينة من العمر ، بل إنه يفرض فرضاً فى الصغر . وعلى هذا ، لم نجد أية ذريعة كى نرفض الطعام .

من قبل ، كنت قد تناولت الشيقة دون علم ، لذا ظللت دائماً رهين إحساسين متعارضين : كان مذاقها عذباً ، كئيباً بعض الشيء ، لكن صورة الثعبان المرشوق فى إطار الباب كانت أشد وطأة من رغبتى فى الطعام . وبذل أخى جهداً خارقاً لكنه فشل فى المساس بالطعام فأفرغ ما فى خوفه .. قالت له السيدة فوربس دون أن تبدى أى تأثر :

- تذهب إلى الحمام وتغتسل جيداً ثم تعود مرة أخرى .

شعرت بهمٍّ عظيم من أجله ، فقد كنت أعلم كم كان يشق عليه اجتياز المنزل بأكمله مع بداية حلول الليل والبقاء فى الحمام الوقت اللازم للاغتسال . لكنه عاد فى الحال وقد استبدل قميصه ، شاحباً ، لم يكد يتخلص من رعبه المستتر ، وتحمل فى صبر اختبار نظافته الصارم. عندئذ قطعت السيدة فوربس قطعة أخرى من الشيقة وأمرته باستئناف الأكل . وابتلعت أنا قطعة أخرى بشق الأنفس ، لم يمسس أخى الشوكة أو السكين .. قال :

- لن آكلها .

كان إصراره واضحاً فتجنبته السيدة فوربس .. قالت :

- حسن ، لكنك محروم من الحلوى .

أشاع رفض أخى الشجاعة في نفسى فرسمت صليباً بالشوكة والسكين فوق طبقى ، كما علمتنا السيدة فوربس أن نفعل عند الانتهاء من الطعام ، وقلت:

- لن آكل حلوى أنا أيضاً .

ردت هى :

- ولن تشاهدا التلفزيون .

قلت :

- ولن نشاهد التلفزيون :

وضعت السيدة فوربس منديل الطعام على المائدة ووقف ثلاثتنا للصلاة ، ثم أرسلتنا إلى غرفة النوم ، على أن نظل هادئين ريثما تنتهي هي من تناول عشائها . وألغيت كل نقاطنا وتحتم علينا من جديد أن نحصل على عشرين درجة حتى يتسنى لنا الاستمتاع بما تعده من حلوى القشدة أو فطائر الفانيليا أو كعك الخوخ التى لن نجد لها مثيلاً بقية حياتنا .

كان مقدراً لنا أن نصل إلى تلك القطيعة إن عاجلاً أو آجلاً . فخلال عام كامل ، انتظرنا بفارغ الصبر مجيء ذلك الصيف بجزيرة « بانتلاريا » ، في أقصى جنوب صقلية ، كي ننطلق . وهكذا كان حقيقة خلال الشهر الأول بصحبة والدينا . ما زلت أتذكر كالحلم ذلك السهل المشرق ذا الصخور البركانية والبحر الخالد والمنزل المطلي بالجير الحي حتى ما بين فواصل حوائطه وأشعة المنائر الأفريقية تلوح ليلاً عبر شرفاته .

بينما كنا نستكشف قاع الجزيرة الساكن بصحبة أبي ، عثرنا على مجموعة طوربيدات صفراء اللون راكدة منذ الحرب الأخيرة وأنقذنا جرة إغريقية بارتفاع حوالى المتر عليها زهور غار متحجرة وفي قاعها ثمالة نبيذ عتيق وسام، وسبحنا فى فرضة ينبعث منها البخار وماؤها كثيف يمكن السير عليه .

لكن فولفيا فلامينيا كانت اكتشافنا المبهر حقيقة . كانت كأسقف سعيد ، تسير دائماً وفي إثرها ثلة من القطط الناعسة تعطل مشيها ، كانت تقول إنها لا تتحملها حباً فيها بل لتتجنب أن تلتهمها الفئران . في الليل ، بينما يشاهد والدانا برامج الكبار فى التلفزيون ، كانت فولفيا فلامينيا تصحبنا إلى بيتها ،

علي مسافة أقل من مائة متر من منزلنا ، وتعلمنا تمييز الأغاني والأصوات البعيدة ونحيب رياح تونس . كان زوجها يصغرها بكثير ويعمل خلال الصيف في الفنادق السياحية في الطرف الآخر من الجزيرة ولم يكن يعود إلي منزله إلا لقضاء الليل .

وكان أوريستي يعيش مع والديه علي مسافة أبعد قليلاً ، وكان يظهر دائماً ليلاً حاملاً حزمة من السمك وسلة من الإستاكوزا اصطادها في التو ويعلقها في المطبخ كي يبيعها زوج فولفيا فلامينيا في اليوم التالي . بعد ذلك ، يضع مصباح الغوص فوق جبهته ونخرج معه لصيد فئران الجبل الكبيرة الحجم كالأرانب والتي كانت تترصد نفايات المطابخ . في بعض الليالي ، كنا نعود بعد أن يأوي أبوانا إلى فراشهما ، لا يغمض لنا جفن من جلبة الفئران التي تتنازع بقايا الطعام في الفناء . بيد أن ذلك كان أحد المكونات السحرية لصيفنا السعيد .

لم تكن فكرة التعاقد مع مربية ألمانية لتطرأ إلا على ذهن أبي ؛ الكاتب الكاريبي الذي تفوق خيلاؤه موهبته . كان شغوفا برماد الأمجاد الأوروبية ومتلهفاً دائماً إلى التغاضي عن أصله سواء في كتبه أم في واقعه ، عاقداً العزم على ألا يترك لولديه أيا من رواسب ماضيه . أما أمي فقد ظلت على تواضعها الشديد منذ أن كانت مدرسة متنقلة بـ « جواخيرا » العليا ولم تكن تتخيل أن يستلهم زوجها فكرة لا تكون من وحي السماء .

ولا يبدو أن أياً منهما ساءل نفسه في صدق ماذا سيكون من أمرنا مع « رقيب » من « دورتموند » تصر على إرغامنا على تعلم عادات المجتمع الأوروبي البائدة . بينما كانا هما يشاركان في رحلة بحرية لمدة خمسة أسابيع بجزر بحر إيجه ، مع أربعين كاتباً من كتاب الموضة .

وصلت السيدة فوربس في يوم السبت الأخير من شهر يولية على متن

المركب الآتي كالمعتاد من باليرمو . وما أن رأيناها حتى أيقنا أن العيد انتهى . كانت تلبس حذاء ميليشيات وبذلة بضفي أزرار في أوج ذلك القيظ الجنوبي ، وشعرها قصير كالرجال تحت قبعتها الخوصية ، وتصدر منها رائحة بول قرد . قال لنا أبي : « هذه رائحة كل الأوروبيين خاصة في الصيف . إنه عبق الحضارة » . لكن على الرغم من زيها العسكري ، كانت السيدة فوربس مخلوقاً هزيلاً ربما أشاع في نفسينا شيئاً من الشفقة لو كنا أكبر سناً أو لو كان لديها نذر ولو قليل من الحنان .

تغير كل شيء . فساعات البحر الست التي كانت في بداية الصيف تدريباً متواصلاً على الخيال تحولت إلى ساعة واحدة رتيبة تتكرر دائماً . عندما كنا برفقة أبوينا ، كان لدينا كل الوقت لنسبح مع أوريستي وقد بهرنا بفنه وبسالته وهو يواجه الأخطبوط في ذات مكمنه المظلم من الحبر والدم لا يتسلح إلا بمداه. فيما بعد ، واصل مجيئه في الحادية عشرة في زورقه الصغير كالعادة ، لكن السيدة فوربس لم تكن تسمح له بالبقاء معنا إلا الوقت المحدد لدرس الغطس ، كما حرمتنا من الذهاب ليلاً إلى منزل فولفيا فلامينيا ، فقد اعتبرت ذلك إفراطاً في التبسط مع الخدم ، وتحتم علينا أن نكرس الوقت ، الذي كنانستمتع فيه بصيد الفئران ، لقراءة شكسبير قراءة تحليلية . بعد أن يعتاد المرء سرقة المانجو في الأفنية وقتل الكلاب بالطوب في شوارع جواكاميال الحارة يصبح من المستحيل عليه أن يتخيل عذاباً أشد قسوة من حياة الأمراء تلك .

ومع هذا ، سرعان ما فطنا إلى أن السيدة فوربس لم تكن بذات الصرامة مع نفسها كما كانت معنا ، وكان ذلك أول شرخ في سلطتها . في بادىء الأمر ، كانت تمكث تحت المظلة الملونة ، بزيها العسكري ، تقرأ أشعار

شيلر بينما يعلمنا أوريستى الغطس ، ثم كانت تعطينا دروساً نظرية فى فن التعامل فى المجتمع ، ساعات وساعات يتخللها وقت للغداء .

فى أحد الأيام ، طلبت من أوريستى أن يقلها فى زورقه إلى محلات الفنادق وعادت من هناك بلباس بحر يغطى كل جسدها ، لونه أسود متموج الدرجات كأنه جلد عجل البحر ، ومع هذا لم تكن تنزل إلى البحر . كانت تعرض جسدها للشمس ريثما نسبح وتجفف عرقها بالمنشفة دون أن تستحم بماء «الدش» وبمرور ثلاثة أيام بدت كالإستاكوزا الملتهبة وأضحى عبق حضارتها لا يطاق .

كان الليل هو متنفسها الوحيد . فى البداية ، كنا نحس بأن شخصاً ما يتجول فى حلكة المنزل ويحرك ذراعيه فى الظلام ، وأقلقت أختى فكرة أن يكون شبح أحد الغرقى الذين حدثتنا فولفيا فلامينيا عنهم كثيراً ، ثم اكتشفنا أنها السيدة فوربس التى تحيا فى الليل حياة امرأة وحيدة ، حياة ربما استهجنتها هى ذاتها خلال النهار . وفى فجر أحد الأيام ، باغتناها فى المطبخ ترتدى قميص نوم تلميذة وتعد حلواها الرائعة ، وقد تلطخ كل جسدها ووجهها بالدقيق ، وتحتسى كاساً من نبيذ « بورتو» بفوضى ذهنية ربما أثارت ثائرة السيدة فوربس الأخرى .

كنا نعلم أنها لا تأوى إلى فراشها بعدنا بل كانت تذهب للسباحة فى الخفاء ثم تمكث فى الصالة حتى وقت متأخر لتشاهد ، بلا صوت ، أفلام التلفزيون المحرمة على الأطفال وتلتهم كعكات كاملة وتتناول زجاجة نبيذ من نوع خاص كان أبى يحفظه بحرص شديد من أجل المناسبات الهامة . وضد تعاليمها بصدد التقشف والتزام اللياقة ، كانت تغصّ بالطعام بلا هوا دة وفى نهم جامح. ثم كنا نسمعها تتحدث إلى نفسها فى غرفتها أو تلقى بألمانيتها الرخيمة أجزاء

كاملة من Jungfrau von Orleans وكنا نسمعها تغنى ، وكنا نسمعها تنتحب فى فراشها حتى مطلع النهار ، وعلى مائدة الفطور ، كانت تظهر وعيناها منتفختان من أثر البكاء وقد ازدادت كآبتها وازداد تسلطها .

لم نشعر أنا وأخى بمثل تلك التعاسة ، ولكننى كنت على أهبة الاستعداد لتحملها حتى النهاية ، فقد كنت أعى أن منطقها لا مناص له من أن ينتصر فى كل الأحوال على منطقنا . أما أخى فقد تصدى لها بكل اندفاع شخصيته وتحول الصيف السعيد إلى جحيم . وكانت حادثة الشيقة القشة التى قصمت ظهر البعير . فى ذات الليلة ، بينما ننصت إلى صخب السيدة فوربس بالمنزل النائم ، أطلق أخى فجأة كل شحنة الغضب الذى كان ينخر قلبه . قال :

ـ سوف أقتلها .

لم يفاجئنى إصراره بقدر ما فاجأنى أننى أيضاً كنت أفكر فى نفس الشىء منذ وقت العشاء . ومع هذا ، حاولت إقصاءه عن فكرته ، فقلت له :

ـ سيقطعون رأسك .

قال هو :

ـ ليس ثمة مقصلة فى صقلية ، علاوة على أن أحداً لن يعلم من الجانى .

كان يفكر فى الجرة التى أنقذناها من قاع الماء وبقيت بها ثمالة النبيذ الزعاف . احتفظ به أبى لأنه أراد أن يخضعه لتحليل أعمق لمعرفة أصل السم ، فليس من المعقول أن يكون نتيجة لمرور الزمن فقط . وكان استخدامه ضد السيدة فوربس هينا سهلاً لأن أحداً لن يتوقع إلا أن تكون حادثة أو انتحاراً . وهكذا ، عندما أحسسنا بأنها سقطت وخارت قواها من جراء سهادها المضنى ، دسسنا سماً من الجرة فى زجاجة النبيذ . وحسبما سمعنا ، كانت تلك الجرعة كافية لقتل حصان .

في التاسعة صباحاً ، بالمطبخ ، كنا نتناول عادة الفطور الذى تعده السيدة فوربس بنفسها من الخبز المحلى بالسكر الذى تتركه فولفيا فلامينيا فوق الموقد ، وبعد يومين من دس السم نبهني أخي بنظرة إحباط ونحن نتناول فطورنا إلى أن الزجاجة المسمومة كانت في مكانها على الخوان دون أن يمسها أحد . كان ذلك يوم الجمعة ، وبقيت الزجاجة على حالها طوال نهاية الأسبوع . لكن السيدة فوربس ، في يوم الثلاثاء ، احتست نصف الزجاجة بينماً كانت تشاهد الأفلام الإباحية في التلفزيون .

ومع هذا ، وصلت في موعدها المحدد ساعة الفطور يوم الأربعاء . ظهرت على وجهها كالمعتاد أمارات السهاد ، وكالمعتاد أيضاً لاحت عيناها فزعتين خلف زجاج نظارتها السميك وزاد من فزعهما أن وجدت خطاباً عليه أختام ألمانية في سلة الخبز . قرأته بينما كانت تتناول القهوة ، وعلى نحو علمتنا دائماً أنه غير مقبول ، واعترت وجهها أثناء القراءة دفقات من وميض أضاء الكلمات المكتوبة ثم نزعت الطوابع من الظرف وتركتها في سلة الخبز لأن زوج فولفيا فلامينيا كان يجمعها .

رغم ذلك الحادث المؤسف في أول النهار ، اصطحبتنا لاستكشاف قاع البحر وأخذنا نجوب مياهاً ضحلة حتى نفاد هواء مستودع الأكسجين ، وعدنا إلى البيت بلا درس آداب السلوك .. لم تكن السيدة فوربس معتدلة المزاج طوال اليوم فحسب بل بدت متألقة على العشاء كما لم نرها من قبل . ولم يكن أخي ، بدوره ، يحتمل مرارة فشله . ما أن تلقينا أمر بدء العشاء ، أبعد طبق حساء الشعرية بإيماءة استفزازية وقال :

- لقد ضقت ذرعاً بماء الديدان هذا !

قال ذلك كأنه يلقي بقنبلة يدوية على المائدة .. شحب لون السيدة فوربس

وتصلبت شفتاها ، حتى تلاشى دخان الانفجار وتسربل زجاج نظارتها بالدموع . ونزعت نظارتها وجففتها بمنديل المائدة وتركت المنديل قبل أن تنهض بمرارة استسلام بلا مجد . قالت :

ـ افعلا ما يعنّ لكما فلا وجود لي .

وظلت حبيسة غرفتها منذ السابعة . لكننا ، عند منتصف الليل ، وعندما اعتقدت أننا نائمان ، رأيناها تمر بقميص نومها المدرسى حاملة إلى غرفتها نصف كعكة شيكولاتة وذات الزجاجة وبها عرض أربع أصابع من النبيذ المسمم . شعرت بارتعاشة ألم ، قلت :

ـ يا للسيدة فوربس التعسة !

لم يكن أخى يتنفس فى سلام . قال :

ـ ويالتعاستنا نحن إن لم تمت الليلة !

فى فجر ذلك اليوم ، عاودت الحديث إلى نفسها لوقت طويل وألقت شعر شيللر فى صراخ عال ويوحى من جنون مسعور انتهى بصرخة أخيرة ملكت حيز المنزل بأكمله . ثم شهقت عدة شهقات رهيبة أتت عليها وفاضت روحها بصفير حزين ومتواصل كزورق تائه .

عندما استيقظنا منهكى القوى بسبب توتر السهاد ، كانت الشمس تشق الشيش بسكين ، لكن المنزل بدا كأنه غارق فى قاع بحيرة . انتبهنا إلى أن الساعة تقارب العاشرة ولم يوقظنا روتين السيدة فوربس الصباحى . لم نسمع تصريف المرحاض فى الثامنة ولا صنبور الحوض ولا صخب الشيش ولا وقع الحذاء العسكرى ولا ثلاث الضربات المميتة على الباب براحة يد نخاس . ألصق أخى أذنه بالحائط وحبس أنفاسه ليتسمع أية علامة حياة فى الغرفة المجاورة ، وأخيراً أطلق زفرة تمرد . قال :

ـ انتهى الأمر ، لا يسمع إلا صوت البحر .

قبيل الحادية عشرة ، أعددنا فطورنا ثم هبطنا الشاطىء بأسطوانتي أكسجين لكل منا ومستودعين احتياطيين أيضاً ، قبل أن تصل فولفيا فلامينيا بشرذمة قططها لتقوم على نظافة المنزل .

كان أوريستي بالجسر ينظف أحشاء سمكة «دنيس» تزن ستة أرطال كان قد اصطادها في التو . قلنا له إننا ظللنا ننتظر السيدة فوربس حتى الحادية عشرة ولما كانت نائمة قررنا الخروج بمفردنا إلى البحر . وقصصنا عليه أيضاً أنها أصيبت في الليلة السابقة بنوبة من البكاء على مائدة العشاء ويبدو أنها فضلت أن تلزم الفراش بعد ليلة مؤرقة .

لم يلق أوريستي بالاً إلى هذا الشرح كما توقعنا ، وصحبنا للغوص في مياه الجزيرة ما يربو على الساعة . ثم أشار إلينا أن نصعد لتناول الغداء ، وذهب في زورقه ليبيع السمكة في فنادق السياح . لوحنا له مودعين من السلم الحجرى حتى يعتقد أننا في طريقنا إلى المنزل ، إلى أن غاب وراء الصخور . حينئذ شددنا مستودعات الأكسجين إلى ظهرينا وواصلنا السباحة بلا تصريح من أحد .

كانت السماء ملبدة بالغيوم ويسمع دوى رعود قاتمة في الأفق ، لكن البحر ظل هادئاً وشفافاً وكان يكفينا ما يشع من ضوء . سبحنا على السطح حتى بلغنا خط فنار « بانتلاريا » ، ثم انحرفنا نحو مائة متر إلى اليمين وغصنا في المنطقة التي قدرنا أن الطوربيدات الحربية التي رأيناها في بداية الصيف تسكن في قاعها . كانت هناك ، وكانت ستة مطلية بطلاء أصفر بلون الشمس وعليها أرقام مسلسلة واضحة ، ترقد في القاع البركاني في نظام تام لا يمكن أن يكون عارضاً .

ثم واصلنا السباحة حول الفنار بحثاً عن المدينة الغارقة التي حدثتنا

عنها فولفيا فلامينيا كثيراً وفي كثير من العجب ، ولكننا لم نعثر عليها . بعد ساعتين خرجنا إلى سطح الماء مع آخر زفرة أكسجين ، على يقين من أنه ليست هناك أسرار أخرى لم نكتشفها .

وبينما كنا نسبح ، هبت زوبعة صيفية فاضطرب البحر وحلق حشد من الطيور الجارحة بنعابها الوحشي فوق خيط من الأسماك المحتضرة على الشاطىء . لكن ضوء المساء بدا كأنه خلق في التو ، واستطيبت الحياة بدون السيدة فوربس . ومع هذا عندما انتهينا من صعود السلم الصخرى الشاق ، رأينا جمعاً من الناس بالمنزل وسيارتي شرطة أمام الباب . حينئذ فقط أدركنا لأول مرة حجم ما فعلناه . ارتعدت فرائص أخي وحاول التراجع ، قال:

ـ لن أدخل .

داخلني إحساس غامض بأننا سنكون بمنأى عن أى شك بمجرد رؤية الجثة .. قلت له :

ـ اهدأ . خذ نفساً عميقاً وفكر في شيء واحد فقط : نحن لا نعلم شيئاً .

لم يحفل أحد بنا . تركنا اسطوانات الأكسجين ، والقناعين وزعانف الغطس عند الباب ودخلنا من الرواق الجانبي حيث جلس رجلان يدخنان على الأرض إلى جوار حمالة إسعاف . في تلك اللحظة ، لاحظنا وجود سيارة إسعاف بالباب الخلفي وعدد من الجنود المسلحين . في الصالة ، كانت نساء الجيران يصلين بلغتهن الدارجة جالسات على الكراسي التى رصت إلى جوار الجدار ، وكان أزواجهن مجتمعين في الفناء يتحدثون في أشياء لا علاقة لها بالموت .

ضغطت يد أخي المتيبسة الباردة ولجنا المنزل من الباب الخلفي . كان باب غرفتنا مفتوحاً ، وكانت على ذات الحالة التى تركناها عليها في الصباح . وفي حجرة السيدة فوربس المجاورة لحجرتنا ، كان ثمة رجل شرطة مسلح يمنع

الدخول ، لكن الباب ظل مفتوحاً.. أطللنا إطلالة على الداخل والقلب محزون ، وما كدنا نفعل حتى خرجت فولفيا فلامينيا كالسهم وأغلقت الباب بصرخة مرعبة :

- بحق الإله يا ولدى ، لا تنظرا !

وصلت متأخرة . لن ننسى ، ما تبقى لنا من عمر ، ما رأيناه فى تلك اللحظة الخاطفة . كان ثم رجلان بالملابس المدنية يقيسان المسافة بين الفراش والحائط بشريط معدنى بينما يلتقط آخر صوراً فوتوغرافية بآلة تصوير لها غطاء أسود اللون كآلات مصورى المتنزهات . لم تكن السيدة فوربس مسجاة على السرير المضطرب ، بل كانت ترقد على جانبها على الأرض ، عارية ، فى بركة من دم جاف صبغ أرض الغرفة بأكملها ، وكان جسدها كالمصفاة من آثار الطعنات ، سبعة وعشرون أثر طعنة قاتلة .

وأغلب الظن أن من سدد تلك الطعنات الوحشية والكثيرة كان تحت تأثير حب جامح ، وأن السيدة فوربس تلقتها بنفس التأجج العاطفى دون أن تصرخ صرخة واحدة ، دون أن تبكى ، بينما تلقى شعر شيللر بصوت جندى جميل ، وقد أدركت أنه الثمن المحتوم لصيفها السعيد .

١٩٧٦

الحكاية العاشرة

ترامـونتانا

رأيته مرة واحدة في « بوكاتشو » كباريه الموضة في برشلونة ، قبل ساعات قلائل من نهايته المروعة ، تطارده شرذمة من الشباب السويدي تحاول إرغامه على الخروج معهم ، في الثانية صباحاً ، ليكملوا سهرتهم في « كداكس » كانوا أحد عشر شخصاً من العسير تبين ملامح كل منهم على حدة لتشابههم الشديد رجالاً ونساء : هيئة مليحة ، أعجاز ضيقة ، شعور ذهبية مسترسلة . أما هو فلا تزيد سنه على العشرين ، شعره مجعد لامع وبشرته سمراء اللون وملساء كأهل الكاريبي المعتادين على السير في الظل كما عودتهم أمهاتهم ، وله نظرة عربي تدير رءوس السويديات وربما رءوس بعض السويديين أيضاً .

كانوا قد أجلسوه على طاولة الكباريه كأنه دمية ، يغنون له أحدث الأغاني ، يصاحبهم صفق أكفهم ، علّهم يقنعونه بالذهاب معهم . وكان هو يشرح لهم أسباب رفضه في هلع . تدخل رجل صارخاً ، يطلب منهم أن يدعوه وشأنه ، فواجهه أحد السويديين ، يكاد ينفجر من الضحك ، وقال له :

– إنه لنا ، لقد وجدناه في القمامة .

كنت قد دخلت المكان قبل ذلك بقليل ، برفقة جماعة من أصدقائي ، بعد آخر حفلة موسيقية قدمها « ديفيد أوليستراخ » في « قصر الموسيقى » ، واقشعر بدني من سخرية السويديين ، فقد كانت للصبي أسبابه المقدسة .

فقد ظل يقطن في «كداكس» حتى صيف العام السابق ، يغني أغاني الأنتيل في حانة « عصرية » ، حتى هزمته الترامونتانا . ونجح في الفرار في

اليوم التالي بعد أن قرر عدم الرجوع إلى هناك قط ، لا في أيام الترامونتانا ولا في غيرها ، واثقا بأنه لو عاد إلى هناك مرة أخرى فسيجد الموت ينتظره . كان يقيناً كاريبياً لن تفهمه ثلة من أهل الشمال العقلانيين ألهب حميتهم صيف قائظ ونبيذ قطلوني خشن في ذلك الوقت يترع القلب بأحمق الأفكار .

كنت أعي أسبابه كما لا يعيها أحد . كانت «كداكِس» من أجمل قرى « كوستا براڤا » وخيرها حفاظاً على طابعها . وكان الفضل يعود في ذلك إلى مدخل القرية ، وهو شريط ساحلي ضيق وملتو ، على شفا هوة سحيقة لا قرار لها ، تلزم المرء روح رابطة الجأش كي يقود فيه سيارته بسرعة تتجاوز خمسين كيلومتراً في الساعة .

كانت المنازل القديمة بيضاء ومنخفضة ، على نسق قرى صيادي البحر المتوسط التقليدية . أما المنازل الحديثة فقد بناها معماريون مشاهير احترموا طابعها الأصيل . في الصيف ، عندما يلوح الحر آتياً من الصحراء الإفريقية الكائنة على الرصيف المقابل ، تصبح «كداكِس» « بابل » من الجحيم ، بسائحيها القادمين من أنحاء أوروبا جاءوا ينازعون أهلها - والأجانب الذين شاء حسن طالعهم أن يشتروا هناك منزلاً عندما كان ذلك متاحاً - جنتهم .

ومع هذا ، ففي الربيع والخريف ، أي الفترة التي تصبح فيها «كداكِس» أكثر جاذبية ، لا يكف أحد عن ترقب الترامونتانا في رعب ، وهي رياح داخلية قاسية وعنيدة تحمل في طياتها نواة الجنون ، في رأي أهلها ورأي بعض الكتاب المجربين .

قبل الآن بخمس عشرة سنة ، كنت من زوارها الدائمين حتى اخترقت الترامونتانا حياتنا . شعرت بها قبل أن تهب ، في يوم من أيام الأحد ساعة

القائلة ، شعرت بنذرٍ غامضة ، شئ ما كان على وشك الحدوث . كسدت روحى وجثم على صدرى حزنٌ لا سبب له وأحسست بأن ولدىّ ، تحت سن العاشرة بعد ، يتبعاننى فى المنزل بنظرات عدائية .

دخل حارس البيت بعد ذلك بقليل ، حاملاً صندوق معدات وأحبالاً بحرية لكى يؤمن الأبواب والنوافذ . لم يدهش لخَوَرى . قال لى :

– إنها الترامونتانا ، قبل ساعة ستكون هنا !

كان رجل بحر قديم ، طاعنا فى السن ، يحتفظ من مهنته القديمة بسترة واقية من المطر وقلنسوة وغليون وبشرة حرّقتها أملاح العالم . فى أوقات فراغه ، كان يلعب لعبة الكريات المعدنية فى الميدان مع قدامى عدة حروب خاسرة ويتناول المشهيات مع السياح فى حانات الشاطئ لما حباه الله من فضيلة التفاهم بأية لغة أخرى عن طريق لغته القطلونية المدفعية . كان يزهو بأنه رأى جميع موانئ الكوكب ولم ير مدينة داخلية واحدة ، ويقول : « ولا حتى باريس فرنسا رغم كونها باريس » . فهو لم يكن يعترف بوسيلة نقل أخرى لا تكون البحر .

فى الأعوام الأخيرة ، أصابته الشيخوخة فجأة ، ولم يعاود الخروج إلى الشارع . كان يمضى جُلّ وقته فى حجرة البواب وحيدا ، كما اعتاد دائماً . وكان يطهو طعامه فى علبة من الصفيح وعلى موقد الكحول ، بيد أن ذلك كان يكفيه ليمتعنا بكل لذائذ المطبخ القوطى .

مع بزوغ الفجر ، كان يضطلع بأمور السكان ، بيتاً بيتاً ، خدوماً كما لم أعرف رجلاً مثله على الإطلاق ، وبكرم القطلونيين العفوى وحنانهم الخشن . كان قليل الكلام ولكن أسلوبه كان مباشراً وصائباً . وحين لا يجد ما يفعله كان يملأ استمارات تكهنات كرة القدم التى نادراً ما كان يرسلها .

في ذلك اليـوم ، بينمـا يحكم إقـفـال الأبواب والنوافـذ ، حـدثنا عن الترامونتانا كـأنها زوجة مـقيتة ولا تستطاب الحيـاة بدونها . أثار غرابتى أن يكرس رجل بحر مثل ذلك الاهتمام لرياح تصدر من اليابسة . قال :

- لأنها أقدم من البحر .

تراءى لنا أن عامه لا ينقسم إلى أيام وشـهور بل يقاس بعدد المرات التي تهب فـيـهـا ريـاح التـرامـونتـانـا . قـال لي ذات مـرة : « فى العـام المـاضـى ، بعـد حوالى ثلاثة أيام من ثاني ترامـونتانا ، أصبت بمغص كلوى » . قد يفسـر هذا اعتقاده بأن المرء يشيخ لعدة سنوات بعد كل ترامونتانا . ومن شـدة هوسه بـهـا ، بث فينا اللهفة إلى معرفتها كما لو كانت زائرة مميتة ومشوقة فى آن واحد .

لم ننتظر طويلاً فما أن خرج البواب حتى سمعنا صفيرا حادا وشديدا ذاب فى دوى رجفة أرضـيـة ، على شكل دفقات متباعدة أولاً ، تتضـاعف بمرور الوقت ، حتى هبت إحداها مسـتمرة ، لا تتزحزح ، بلا هوادة ، فى شدة وقسـوة يشـوبهـمـا شئ مـا خـارق للعـادة . وعلى عكس مـا هو شـائـع فى الكاريبى ، كـان منزلنا يطل على الجبل ، وقـد يرجع ذلك إلى ذوق القطلونيين القـدامي الغـريب ، فـهم يحـبـون البـحـر لكن دون رؤيتـه . لذا كـانت الريـاح تسوط واجـهـة البـيت وتنذر باقتلاع أطر نوافذه .

أشـد مـا لفت انتـبـاهي أن الطقس ظل بـهـيـاً بـهـاء لا مـثـيل له ، فـالشـمـس ذهبيـة والسمـاء وادعـة . من ثم قررت الخروج بصـحـبـة طفليّ لنشـهد حـالة الجو ، وكـانا - فى نهـاية الأمـر - قد نشـآ على زلازل المكسـيك وأعـاصـيـر الكاريبى ، ومـسـألة هبـوب رياح جـديدة أو عـدم هبوبها لم تكن - فى رأينا - شيئاً يثير قلق أحـد .

مررنا على أطراف أصابعنا بحجرة البواب وألفيناه جامداً أمام طبق فاصوليا وسجق الخنزير ، يتأمل الرياح عبر النافذة . لم يرنا نخرج .

تمكنا من السير بينما كنا نحتمي بالمنزل ، لكننا عندما وصلنا الناصية المكشوفة اضطررنا إلى احتضان أعمدة الإنارة حتى لا تعصف بنا شدة الرياح. وظللنا على تلك الحال ننعم النظر إلى البحر الساكن والشفاف وسط الطوفان حتي خفّ البواب لنجدتنا يعاونه بعض الجيران . عندئذ فقط أدركنا أن العقل يلزمنا بأن نمكث حبيسى المنزل إلى ما شاء الله . ولم تكن لدى أحد أدنى فكرة عن موعد سكون العاصفة .

بعد يومين ، توطد لدينا انطباع بأن تلك الرياح المروعة لم تكن ظاهرة أرضية بل إهانة شخصية يقوم بها شخص ما ضد المرء ، وضد واحد فحسب . كان البواب يزورنا عدة مرات في اليوم الواحد وقد انتابه قلق بصدد حالتنا النفسية ، يحمل إلينا فواكه الموسم وكعكاً للطفلين . وفى غداء يوم الثلاثاء ، أهدانا واحدة من روائع المطبخ القطلونى : أرانب بالحلزون .. كانت حفلة وسط ذلك الرعب .

كان يوم الأربعاء ، الخالى إلا من الرياح ، أطول أيام عمرى ، بيد أنه كان شبيها بالظلام الذى يسبق الفجر ، فبعد منتصف الليل ، استيقظنا جميعاً فى آن معاً تحت وطأة سكون مطبق قد لا يعد له إلا سكون الموت .

لم تتحرك ورقة من أوراق الشجر ناحية الجبل ، فخرجنا إلى الشارع – وحجرة البواب ما زالت مظلمة – واستمتعنا بسماء الفجر وبكل ثرياها المنيرة وبالبحر الفوسفورى . وبرغم أن الساعة لم تبلغ الخامسة بعد ، خرج حشد كبير من السياح لينعموا بصفاء الجو على صخور الشاطئ وبدأوا فى إعداد المراكب الشراعية بعد ثلاثة أيام من الكفارة .

عند خروجنا من المنزل ، لم نهتم بأمر حجرة البواب المظلمة ، لكن الهواء – عند عودتنا – كانت له ساعتئذ نفس فوسفورية البحر ومع هذا ظلت الحجرة مظلمة . طرقت الباب متحيراً ، وإذ لم يرد أحد دفعت الباب .

أعتقد أن طفليّ رأياه قبلي وأطلقا صرخة رعب . كان البواب ، بأوسمة كبار البحارة المعلقة في ياقة سترته ، يتدلى مشنوقاً من رافدة السقف المركزية ، لا يزال يتأرجح بفعل آخر دفقة من رياح الترامونتانا .

في أوج نقاهتنا ، وبحنين سابق لأوانه ، رحلنا عن القرية قبل الموعد المحدد بقرار لا رجعة فيه بعدم العودة إليها أبداً . ملأ السياح الشوارع من جديد وسمع صوت الموسيقى في ميدان قدامي الحرب الذين لم تكن لديهم أية رغبة في ضرب كرياتهم المعدنية .

عبر زجاج حافة « ماريتيم » الغبش ، تراءى لنا بعض أصدقائنا الناجين يستأنفون حياتهم مرة أخرى في ربيع الترامونتانا المشرق . بيد أن كل ذلك كان ينتمي إلى الماضي .

لذا ، ففي ذلك الفجر الحزين بكباريه « بوكاتشو » ، لم يكن أحد يعي مثلي رعب شخص يأبى العودة الى «كداكس» لتيقنه من قرب نهايته ، ومع هذا ، أخفقت كل السبل في إقناع السويديين الذين انتهوا الى حمل الصبي عنوة يزعمون زعما أوروبيا بتطبيق علاج حمار لتبرئته من خرافاته الإفريقية . أجبروه وهو يرفس بقدميه على ركوب شاحنة سكارى صغيرة وسط تصفيق وصفير رواد الكباريه المنقسمين على أنفسهم . وبدأوا رحلتهم الطويلة الى «كداكس» .

في اليوم التالي ، أيقظني الهاتف . عند عودتي من الحفل في الليلة السابقة ، نسيت إسدال الستائر ولم تكن لدى أدنى فكرة عن الوقت ، لكن غرفة

نومى كانت غارقة فى ضياء الصيف . ما أن سمعت الصوت الجزع الصادر من سماعة الهاتف الذى لم أتعرف عليه فى الحال حتى استيقظت تماما .

- أتتذكر الصبى الذى أرغموه فى الفجر على الذهاب الى «كداكِس» ؟.

لم أحتج الى سماع المزيد ، بيد أن الأمر لم يحدث كما كنت أتوقعه وإنما على نحو أشد مأساوية . انتهز الصبى - المذعور من اقتراب عودته - غفلة السويديين المخمورين أثناء سير الشاحنة وقفز فى الهاوية محاولاً النجاة من موت محقق .

يناير ١٩٨٢

الحكاية الحادية عشرة

الضـوء كـالماء

في عيد الميلاد ، عاد الطفلان فطلبا مركباً بمجدافين ، قال الأب :

– حسن . سنشتريه عند عودتنا إلى قرطاجنة .

كان توتوه – في التاسعة من عمره – وجويل – في السابعة – أشد إصراراً على ذلك مما توقعه والداهما . قالا في صوت واحد :

– كلا ، نحن نريده الآن وهنا .

ردت الأم :

– أولاً ، ليس ثمة مياه صالحة للملاحة هنا سوى تلك التي تسقط من الدش .

كانت هي وزوجها على حق . ففي بيتهم بقرطاجنة دي إندياس* ثمة فناء بجسر على الخليج وملجأ ليختين كبيرين ، بينما هم في مدريد يقطنون شقة ضيقة في الطابق الخامس برقم ٤٧ شارع لاكاستيانا * . بيد أنهما ، في نهاية الأمر ، لم يستطيعا الرفض ، لأنهما كانا قد وعداهما بمركب بمجدافين وسدسية * وبوصلة إذا هما نالا إكليل غار الصف الثالث الابتدائي ، وقد نالاه . وهكذا اشترى الأب كل شئ دون أن يخبر زوجته التي كانت أشد المعارضين لمبدأ الاستدانة لشراء اللعب . كان مركباً رائعاً من الألومنيوم به خط ذهبي اللون يحدد مستوى الماء .

---

* قرطاجنة دي إندياس: (CARTA GENA DE INDIAS) ، مدينة بكولومبيا .
* لاكاستيانا : (LA CASTELLANA) ، أحد شوارع مدريد الرئيسية .

على مائدة الغداء ، كشف الأب عن المفاجأة :

- المركب فى الجراج . لكن المشكلة هي أنه ليست هناك طريقة لنقله لا بالمصعد ولا عن طريق السلم ، ولا يوجد له مكان فى الجراج .

ومع هذا ، فى مساء السبت التالى ، دعا الطفلان زملاء المدرسة لنقل المركب عن طريق السلم وتمكنوا من حمله إلى حجرة المخزن .

قال الأب لهما :

- تهانئى ! والآن ، ماذا ؟

- الآن ، لا شئ . كل مـا كنا نوده أن يكون المركب تحت تصـرفنا فى حجرة المخزن وهاهو ذا .

مساء الأربعاء ، وككل أربعاء ، ذهب الأبوان إلى السينما . أحكم الطفلان - سيدا البيت الآن - إغلاق الأبواب والنوافذ وحطما زجاج لمبة مضاءة من لمبات نجفة الصالة فأخذت دفقة من الضوء الذهبى الطازج كالماء تنساب من اللمبة المحطمة . لاحظا جريان الضوء حتى بلغ ارتفاع أربعة أشبار . حينئذٍ ، فصلا التيار وأخرجا المركب وأبحرا على هواهما بين جزر المنزل .

كانت تلك المغامرة الخرافية نتيجة لزلة من زلات لسانى حينما كنت أشارك فى ندوة عن شاعرية الأدوات المنزلية فسألني توتوه : لمَ يشتعل الضوء بمجرد الضغط على زر ؟ ولم تواتني الشجاعة للتمعن فى الرد ، فأجبته فى الحال :

- الضوء كالماء ، تفتح الصنبور فيخرج !

---

* سدسية أو آلة السدس : آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة .

وهكذا واصلا الإبحار كل أربعاء وتعلما التحكم في السدسية واستخدام البوصلة حتى إذا عاد والداهما من السينما وجداهما نائمين كملاكين من ملائكة اليابسة . بعد ذلك بشهور ، في لهفتهما إلى مزيد من الإثارة ، طلبا طاقم صيد تحت المـاء مزوداً بكل شئ : قنـاع وزعانف وأسطـوانة أكسـچين وبندقيـة ضغط هواء .

قال الأب :

– من السيىء أن يكون لديكما في حجرة المخزن مركب بمجدافين غير ذي نفع ، لكن الأسوأ أن تطلبا – زيادة على ذلك – طاقمي غطس .

أجابه جويل :

– وماذا إذا حصلنا على جائزة الغردينيا الذهبية في النصف الأول من العام الدراسي ؟

قالت الأم :

– لا ، انتهى الأمر !

أنّبها الأب لتشددها ، فقالت :

– ليس بوسع هذين الولدين الفوز بمسـمار واحد لو تعلق الأمر بإتمام واجباتهما ولكنهما قادران على نيل كرسي المعلم نفسه من أجل إرضاء نزوة .

في النهاية ، لم يحسم الأبوان موقفهما . لكن توتوه وجويل ، اللذين كان ترتيبهما الأخير في العامين الدراسيين السابقين ، حصلا في شهر يولية على جائزتي الغردينيا الذهبيتين ونالا من مدير المدرسة اعترافاً معلناً بذلك . في مساء ذلك اليوم ، ودون أن يعاودا طلبهما ، وجدا طاقمي الغطس بغلافهما الأصلي ، في غرفة نومهما . وهكذا ، في يوم الأربعاء التالي وبينما كان أبواهما

يشاهدان « التانجو الأخير في باريس » ، غاصا كسمكتى قرش أليفتين تحت الأثاث والأسرة وأنقذا من قاع الضوء الأشياء التى ظلت لعدة سنوات مفقودة فى الظلام .

فى حفل نهاية العام الدراسى ، صفقت المدرسة للأخوين النموذجين ، ومنحتهما شهادتى امتياز . هذه المرة لم يضطرا إلى طلب شئ لأن أبويهما سألاهما ماذا يريدان . كانا معتدلين فلم يطلبا سوى حفلة فى المنزل يدعوان إليها زملاء المدرسة .

كان الأب ، عندما انفرد بزوجته ، متألقاً . قال :

– إنها علامة نضجهما !

أجابته الأم :

– ليستجب الله لك .

فى يوم الأربعاء التالى ، بينما كان الأبوان يشاهدان « معركة الجزائر » ، رأي المارة بشارع لاكاستيانا شلالا من النور يسقط من بيت قديم تحجبه الأشجار . كان الضوء يخرج من الشرفات ويتدفق عبر الواجهة ويندفع فى الشارع الواسع على هيئة سيل ذهبى أضاء المدينة حتى جبال جوادارّما * .

استدعيت المطافئ وحطم رجالها باب الدور الخامس فوجدوا المنزل يفيض ضوءاً حتى السقف . كانت الأريكة والمقاعد المبطنة بجلد النمر تطفو فى الصالة على ارتفاعات مختلفة ، بين زجاجات النبيذ والبيانو والشال الذى يوضع فوقه وكان يخفق فى الماء كسمكة عملاقة ذهبية . وكانت الأجهزة المنزلية ، فى قمة شاعريتها ، تحلق بأجنحتها فى سماء المطبخ . وطفت آلات الموسيقى ، التى

---

* جوادارّاما (GUADARRAMA) : مرتفعات قريبة من مدريد .

كان الأطفال يستخدمونها للرقص ، طفت مع التيار بين الأسماك الملونة التى تحررت من حوض أسماك الأم والوحيدة التى كانت تطفو حية وسعيدة فى المستنقع المضئ الواسع . وفى دورة المياه ، طفت جميع فرشات الأسنان وعوازل الأب الطبية وأنابيب الدهانات وطاقم أسنان الأم الاحتياطى وكذا جهاز تلفزيون حجرة النوم الكبيرة وقد طفا على أحد جانبيه وهو ما زال يبث آخر حلقة من مسلسل منتصف الليل المحرم على الأطفال .

في نهاية الممر ، كان توتوه يتأرجح جالساً فى مقدمة المركب ممسكاً بالمجدافين ومرتدياً القناع باحثاً عن فنار الميناء حتى نفاد أسطوانة الأكسچين ، بينما كان جويل فى المؤخرة لا يزال يبحث بسدسيته عن النجم القطبى ، كما كان زملاء فصلهما السبعة والثلاثون يسبحون فى جميع أرجاء المنزل وقد خُلِّدوا فى لحظة تبولهم فى أصيص الغرنوق أو أدائهم نشيد المدرسة بعد أن أبدلوا كلماته بأبيات تسخر من المدير أو تناول كأس من البراندى من زجاجة الأب خفية. كانوا قد أشعلوا جميع مصابيح الضوء فى نفس الوقت حتى طفح المنزل وغرق الصف الرابع الابتدائى بمدرسة « سان خوليان أوسبيتالاريو » جميعه ، فى الدور الخامس برقم ٤٧ شارع لاكاستيانا ، فى مدريد إسبانيا ، مدينة بعيدة صيفها حار ورياحها ثلجية ، بلا بحر أو نهر ، مدينة لم يكن أهلها ، سكان اليابسة ، بارعين قط فى علم الملاحة فى الضوء .

ديسمبر ١٩٧٨

الحكاية الثانية عشرة

أثر دمك على الجليد

عند حلول الظلام ، حين وصلا الحدود ، انتبهت نينا داكونتى إلى أن إصبعها الذى يحمل خاتم الزواج مازال ينزف . قام رجل الحرس المدنى ، ببطانيته الصوفية الخشنة فوق قبعته المثلثة اللامعة ، بتفحص جوازى سفرهما على ضوء مصباح الغاز باذلاً جهداً خارقاً حتى لا تعصف به شدة الرياح التى كانت تهب من جبال البرانس . برغم كونهما جوازى سفر ساريى المفعول ، رفع رجل الحرس المدنى المصباح ليتأكد من أن الصورتين مطابقتان لوجهيهما .

كانت نينا داكونتى لا تزال طفلة تقريباً ، لها عينا عصفور حبور وبشرة عسلية ما زالت تشع بشمس الكاريبى فى تلك الليلة المقبضة من شهر يناير وكانت تلتحف حتى رقبتها معطفاً ياقته من البيسون لا يقارن بثمنه مرتب جميع أفراد حرس الحدود فى سنة . وكان بيلى سانشث أبيلا ، زوجها الذى يقود السيارة ، يصغرها بعام بل وفى نفس حسنها ، يرتدى سترة مربعات اسكتلندية وقلنسوة لاعب كرة . على العكس من زوجته ، كان طويل القامة ورياضياً وله فك فولاذى لقاتل محترف خجول .

بيد أن خير ما كان ينم عن ثرائهما كانت السيارة بلاتينيه اللون التى تضوعت من داخلها أنفاس كأنفاس حيوان حى ولم يُر مثلها من قبل بتلك النقطة الحدودية الفقيرة .

كان المقعدان الخلفيان يكتظان بالحقائب الجديدة وبعلب هدايا لم تفض بعد . كانت ثمة أيضاً آلة الساكسفون تينور ، عشق نينا داكونتى الطاغى على

حياتها قبل أن تقع فريسة حبها غير المتكافىء لصديقها الشقي الغض .

عندما أعاد إليه رجل الحرس المدني جوازي السفر مختومين ، سأله بيلي سانشث أين يمكنهما العثور على صيدلية لمعالجة إصبع زوجته ، فصاح رجل الحرس مقاوماً الرياح أن يسألا في « إنداي » ، داخل الحدود الفرنسية . لكن حرس الحدود في « إنداي » ـ الجلوس إلى منضدة وقد خلعوا ستراتهم ، يلعبون الورق ويأكلون خبزاً مغموساً في أقداح نبيذ ، داخل كشك زجاجي دافىء وجيد الإضاءة ـ اكتفوا برؤية حجم ونوع السيارة ليشيروا إليهما بدخول فرنسا . أطلق بيلي سانشث بوق السيارة عدة مرات لكن رجال الحرس لم ينتبهوا إلى أنه كان يستدعيهم ، بل فتح أحدهم زجاج النافذة وصرخ في حنق أشد من حنق الرياح : ـ Merde, allez vous-en !

خرجت نينا داكونتي من السيارة متدثرة بمعطفها حتى أذنيها وسألت رجل الحرس في فرنسية سليمة أين عساها تجد صيدلية ؟ فأجابها كعادته ، وفمه مليء بالخبز ، أن ذلك الأمر لا يعنيه ، خاصة في ظل عاصفة كتلك ، ثم أغلق النافذة . ولكنه رمق بنظره الفتاة التي كانت تمص اصبعها الجريح وقد لفت في ألق البيسوم الطبيعي ويبدو أنه خالها ظهوراً سحرياً في تلك الليلة المخيفة إذ اعتدلت نبرته في الحال وشرح لها أن أقرب مدينة إلى الحدود هي « بياريتس » وإن كان من غير المحتمل أن تجد صيدلية مفتوحة في ذلك الوقت من الشتاء ووسط تلك الرياح الذئبية قبل أن يصلا إلى « بايون » ، بعدها بمسافة قليلة . ثم سألها:

ـ هل الأمر خطير ؟

ابتسمت نينا داكونتي وأرته إصبعاً به خاتم من الماس وفي أنملته وخزة وردة لا تكاد ترى .

ـ لا شيء . إنها وخزة تافهة !

تساقط الجليد مرة أخرى قبل وصولهما « بايون » . لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة بعد ، ومع هذا وجدا الشوارع موحشة والمنازل محكمة الإغلاق لشدة العاصفة . وبعد بحث طويل وغير مثمر قررا مواصلة الرحلة . ابتهج بيلى سانشث بالقرار . كان لديه ولع لا حد له بالسيارات النادرة وكان لدى أبيه الكثير والكثير من الشعور بالذنب ومن الموارد تكفيه إجابته إلى نزواته وتزيد ، ولم يكن قد قاد من قبل سيارة « بنتلى كابورليه » ، هدية زواجه .

كان منتشيا خلف عجلة القيادة حتى أن شعوره بالتعب كان يتضاءل بمرور الوقت ، وكان على أهبة الاستعداد لأن يصل فى ذات الليلة إلى « بوردو » حيث حجز لهما جناح العرس فى فندق « سبلنديد » ، ولم يكن ثم ما يحول دون ذلك لا الرياح العاصفة ولا جليد السماء .

أما نينا داكونتى فكانت متعبة خاصة فى الجزء الأخير من الطريق منذ أن تركا مدريد ، وكان أشبه بطريق ماعز يسوطه الجليد . وهكذا بُعيد « بايون» لفت منديلا حول بنصرها وشدت وثاقه جيداً لتوقف النزيف المستمر وراحت فى سبات عميق . لم يلحظ ذلك بيلى سانشث إلا قبيل منتصف الليل عندما توقف سقوط الجليد وأمسكت الرياح فجأة بين أشجار الصنوبر وتزينت سماء السهول البرية بثريا جليدية .

كان قد تجاوز أضواء « بوردو » الخافتة ولم يتوقف إلا ليملأ مستودع الوقود فى محطة على الطريق ، فقد كان يرغب فى مواصلة القيادة حتى باريس دون أن يلتقط أنفاسه .

كان سعيداً بلعبته الكبيرة التى تكلفت ٢٥ ألف جنيه استرلينى ولم يتوقف ليسائل نفسه إن كانت الطفلة البهية الراقدة إلى جواره هى أيضا سعيدة

وقد تخضب بنصرها بالدم وانتابت نومها لأول مرة ومضات حائرة .

كان قد تزوجا منذ ثلاثة أيام ، على بعد عشرة آلاف كيلو متر من هناك ، في قرطا جنة دى إندياس ، وسط دهشة أبويه وشعور أبويها بالخيبة ومباركة رئيس الأساقفة الشخصية . لم يكن أحد غيرهما يعى الأساس الحقيقى لذلك الحب المفاجىء أو يعرف أصله . كان قد بدأ قبل ثلاثة أشهر من الزواج ، فى يوم أحد على الشاطىء حينما هاجمت عصابة بيلى سانشث غرف تغيير ملابس السيدات فى منتجع « ماربيا » .

كانت نينا داكونتى قد أتمت أعوامها الثمانية عشر وعادت لتوها من مدرسة « شاتلنى » الداخلية بسان بليز ، سويسرا ، وتتحدث أربع لغات بطلاقة وتتقن العزف على آلة الساكسفون ـ تينور إتقاناً متميزاً . وكان ذلك اليوم أول يوم أحد لها على الشاطىء منذ عودتها . كانت قد تعرت تماماً لترتدى لباس البحر عندما بدأ الفرار المذعور وصيحات الهجوم ، فى الأكشاك المجاورة، ولم تكتشف هى ما كان يحدث حتى تحطم مزلاج بابها وتحول إلى شظايا خشبية ورأت أبهى قاطع طريق كان بوسعها أن تتخيله يقف أمامها . لم يكن يلبس إلا قطعة واحدة من جلد النمر المقلد وكان جسده غضاً ولدنا وبلون الذهب كأهل البحر . كان يضع سواراً معدنيا لمصارع رومانى فى يده اليمنى ويمسك بزنجير رهيب من الفولاذ ، سلاحه الفتاك ، وتتدلى من رقبته أيقونة بلا قديس تنبض فى صمت من فزع قلبه .

كانا من قبل زميلين فى المدرسة الابتدائية ، حطما معاً العديد من قدور الحلوى فى حفلات أعياد الميلاد ، وكان كلاهما ينتمى إلى طبقة من سكان المقاطعات تحكم قبضتها على مصير المدينة منذ عهود الاستعمار . غير أنهما افترقا منذ سنوات طويلة لذا لم يتحقق أى منهما من هوية الآخر من الوهلة

الأولى .

ظلت نينا داكونتي ساكنة لا تتحرك ، دون أن تحاول ستر عريها السافر. حينئذ أتم بيلي سانشث طقوسه الصبيانية وخفض سرواله . واجهته هي بناظريها وقالت في ثبات محاولة السيطرة على ذعرها :

- فكر جيداً فيما أنت مقدم عليه ، لأنك ستضطر إلى أن تسلك معي سلوكاً قد لا تحتمله .

لم تكن نينا داكونتي، في واقع الأمر ، عذراء فحسب ، بل إنها لم تكن قد رأت رجلاً عارياً حتى تلك اللحظة . لكن وقفتها المتحدية كان لها بالغ الأثر . لم يقدم بيلي سانشث على أي شيء سوى أنه ضرب الحائط ضربة حانقة بزنجيره الملتف حول قبضته فأصيبت عظام يده .

أقلته إلى المستشفى في سيارتها وساعدته على تخطي فترة النقاهة ، وأخيراً تعلما معاً ممارسة الحب بالطريقة الصحيحة . قضيا أمسيات شهر يونيه القائظة في الشرفة الداخلية للمنزل الذي قضت فيه نحبها ستة أجيال من أسرة نينا داكونتي : هي تعزف الأغاني الحديثة على آلة الساكسفون وهو يستلقي على شبكة النوم ، ويده في الجبس ، يتأملها في ذعر لا يعرف الهوادة .

كانت للمنزل شرفات ضخمة تطل على مياه الخليج الآسنة ، وكان واحداً من أكبر وأعرق منازل حي « لامانجا » وأقبحها أيضاً بلا شك . لكن الشرفة ذات البلاط الشطرنجي التي كانت نينا داكونتي تعزف فيها على آلة الساكسفون كانت بمثابة واحة في هجير الرابعة ، تطل على فناء كثيف الظلال به أشجار مانجو وأشجار موز تحتها قبر وشاهد بلا اسم أقدم من المنزل ومن ذاكرة العائلة .

حتى أشد الناس جهلاً بالموسيقى كانوا يرون أن صوت الساكسفون لم يكن ليناسب ذلك البيت العريق . قالت جدة نينا داكونتى عندما سمعته أول مرة : « إن له صوتاً كدوى السفين » . وعبثاً حاولت والدتها أن تجعل ابنتها تعزف على الساكسفون على نحو مغاير وليس كما كانت تفعل هى على راحتها وقد رفعت تنورتها حتى فخذيها وباعدت ما بين ركبتيها وفى شهوانية لم تبد لأمها أساسية فى الموسيقى . كانت تقول لها : « لست أهتم بنوع الآلة التى تعزفين عليها ما دمت تفعلين ذلك وفخذاك مضمومتان» .

ولكن تلك الأنغام الأشبه بوداع السفن وذلك الحب الشرس هما اللذان أتاحا لنينا داكونتى النفاذ إلى قلب بيلى سانشث المحصن بالمرارة . فتحت تلك الشهرة التعسة كمتوحش والتى نالها بجدارة إذ اجتمع له لقبان شهيران ، اكتشفت هى يتيماً مذعوراً وحنوناً . ولقد بلغا فى توطيد علاقتهما بينما تلتئم عظام يده ، مبلغاً أشعره بالحيرة لسهولة تطور ذلك الحب عندما حملته هى إلى فراشها الصغير ذات مساء ممطر بقيا فيه وحدهما بالمنزل . وعلى مدى ما يقرب من الأسبوعين ، وفى ذات الساعة كل يوم ، مارسا الحب عاريين على مرأى من صور محاربين وجدات نهمات سبقوهما إلى نعيم ذلك الفراش التاريخى .

فى لحظات الاسترخاء كانا يمكثان عاريين ، وقد فتحت النوافذ . يستنشقان نسيم حطام المراكب فى الخليج ورائحتها العفنة أو ينصتان ، فى لحظات صمت الساكسفون ، إلى الضوضاء اليومية فى الفناء : النغمة الرتيبة لضفدع تحت شجرة الموز ، قطرات الماء على القبر المجهول ، خطو الحياة الطبيعى الذى فاتهما من قبل أن يستكنهاه .

وحينما عاد والدا نينا داكونتى إلى المنزل ، كانا هما قد قطعا شوطاً

طويلاً فى حبهما . لم يكن بينهما مكان لشىء آخر ، كانا يمارسانه فى أى مكان وفى أية ساعة ، يجربان اكتشافه من جديد كلما مارساه . أولاً ، على قدر استطاعتهما فى السيارات الرياضية التى كان والد بيلى سانشث يحاول أن يدارى بها ذنوبه ، ثم عندما اعتادا السيارات ، كانا يتسللان إلى أكشاك « ماربييا » الموحشة حيث جمعهما مصيرهما أول مرة ، بل وتسللا متنكرين فى الكرنفال إلى الغرف المؤجرة بحى « خنسمانى » ، حى الرقيق القديم ، فى حماية القوادات اللائى كن يعانين حتى وقت قريب من بيلى سانشث وحملة الزناجير من عصابته .

أسلمت نينا داكونتى نفسها إلى علاقتهما السرية بنفس ولائها المتعصب الذى أغدقت به على آلة الساكسفون ، حتى أدرك لصها الأليف ما كانت تعنيه عندما قالت له إنه سيضطر إلى أن يسلك معها مسلكاً قد لا يحتمله . أما بيلى سانشث فقد استجاب لها دائماً وعلى خير وجه وبذات الحمية .

بعد زواجهما ، أديا واجب الحب حين غلب النعاس المضيفات فى عرض المحيط الأطلنطى ، إذ انحشرا فى مرحاض الطائرة يخنقهما الضحك لا المتعة. فى ذلك الحين ، بعد زفافهما بيوم واحد ، كانا وحدهما يعلمان أن نينا داكونتى حامل منذ شهرين .

عندما وصلا مدريد ، كانا يدركان أن الوقت مازال أمامهما طويلاً قبل أن تزايلهما الرغبة كعاشقين ، وكانت لديهما أيضاً تحفظات كثيرة على مسألة التعامل كزوجين جديدين .

كان آباؤهما قد أعدوا لكل شىء . قبل أن يهبطا من الطائرة ، صعد مسئول البروتوكول إلى كابينة الدرجة الأولى حاملاً إلى نينا داكونتى معطف بيسون أبيض بخطوط سوداء لامعة ، هدية والديها لزواجها ، وإلى بيلى سانشث

سترة جلدية آخر صيحة لموسم الشتاء ، ومفاتيح سيارة بلا ماركة : المفاجأة التي كانت تنتظره في المطار .

استقبلتهما البعثة الدبلوماسية لبلادهما في قاعة كبار الزوار . لم يكن السفير وزوجته مجرد صديقين حميمين لأسرتيهما بل كان هو الطبيب الذي شهد ولادة نينا داكونتي . كان في انتظارها حاملاً غصناً من الورود اليانعة النضرة حتى أن قطرات الندى بدت صناعية .

صافحتهما هي في شيء من الهزل ، تزعجها صفتها المبكرة كعروس ، ثم تلقت الورود . عندئذ جرحت إصبعها شوكة من أشواك الغصن لكنها تغلبت على الموقف بطريقة ساحرة . قالت :

ـ لقد فعلت ذلك عن عمد حتى تلتفوا الى خاتمي .

وبالفعل انبهرت البعثة الدبلوماسية جميعها بروعة الخاتم الذي يقدر ثمنه بثروة، وليس لقيمة ماساته بقدر احتفاظه برونقه العتيق . لكن أحداً لم ينتبه إلى إصبعها الذي بدأ ينزف . فقد تحول انتباه الجميع إلى السيارة الجديدة .

كان السفير قد فكر في دعابة مناسبة. حمل السيارة إلى المطار وغلفها بورق السيلوفان وحولها شريط ضخم. لم يلتفت بيلي سانشث إلى تلك الفكرة المبتكرة. ومن فرط لهفته إلى رؤية السيارة مزق غلافها في سرعة حتى تقطعت أنفاسه .

كانت سيارة ماركة « بنتلي » موديل نفس السنة ، مبطنة بالجلد الطبيعي. . لاحت السماء كعباءة من الرماد وأرسلت جبال جوادراما رياحاً ثلجية جارحة وتعذر البقاء في الهواء الطلق . لكن بيلي سانشث لم يكن قد استشعر بعد برودة الجو . استبقى البعثة الدبلوماسية في موقف السيارات المكشوف ، غير عابىء بأنهم يرتعدون من البرد في أدب ، حتى انتهى من

التعرف على أدق تفاصيل سيارته .

وجلس السفير إلى جانبه ليرشده الطريق حتى محل إقامته الرسمى حيث أعدت لهما مأدبة غداء . فى الطريق ، أخذ يشرح له بعض معالم المدينة ، لكنه بدا أسير سحر السيارة فقط .

كانت تلك أول مرة يترك فيها بلده . كان بيلى سانشث قد مر بجميع المدارس الخاصة والعامة يكرر نفس السنة دائماً حتى أضحى يسبح فى محيط من الهجر . وزاد من وحشته الآن انطباعه الأول عن مدينة تختلف عن مدينته : كتل البنايات الرمادية المضاءة فى وضح النهار ، الأشجار العارية ، البحر البعيد ، لكنه حاول أن يقصى تلك الوحشية عن قلبه ، وسرعان ما سقطت ، دون أن يدرى ، فى أول شرك من شراك النسيان . فقد هبت زوبعة مباغتة وصامتة ، أولى زوابع الشتاء ، وحينما خرجا من بيت السفير ، ألفيا المدينة مغطاة بجليد براق . حينئذ نسى بيلى سانشث سيارته وفى حضور الجميع ، تقلب فى نهر الطريق مرتدياً معطفه يطلق صيحات السرور ويسكب الجليد على رأسه .

أدركت نينا داكونتى لأول مرة أن إصبعها ما زال ينزف عندما خرجا من مدريد فى مساء عاد فأصبح صحواً بعد الزوبعة . فوجئت لذلك لأنها لم تشعر بألم فى بنصرها عندما صاحبت بالعزف على آلة الساكسفون زوجة السفير التى كانت تحب غناء مقطوعات من الأوبرا الإيطالية بعد مآدب الغداء الرسمية . بعد ذلك ، وبينما كانت ترشد زوجها إلى أقصر الطرق إلى الحدود ، أخذت تمص إصبعها لا شعورياً كلما نزف ، ولم يجل بخاطرها أن تبحث عن صيدلية إلا عندما وصلا جبال البرانس. ثم استسلمت للسبات المؤجل فى الأيام الأخيرة، وعندما استيقظت فجأة على ما يشبه الكابوس رأت فيه السيارة تسبح فى الماء، كان قد مضى وقت طويل قبل أن تتذكر المنديل المشدود إلى إصبعها .

تحرت الوقت فى ساعة السيارة وكانت قد تجاوزت الثالثة فحسبت الوقت فى ذهنها وعندئذ فقط فطنت إلى أنهما مرا بـ« بوردو » دون توقف ، وكذا أنجوليم وبواتييه ، وكانا يعبران نهر اللوارالغارق فى مياه الفيضان . تسرب ضوء القمر من خلال الضباب ولاحت القصور بين أشجار الصنوبر كما فى حكايات الساحرات ، وأدركت نينا داكونتى التى تعرف المنطقة عن ظهر قلب أنهما على بعد حوالى ثلاث ساعات من باريس وما زال بيلى سانشث رابط الجأش خلف عجلة القيادة ، فقالت له :

ـ أيها المتوحش ، تقود السيارة إحدى عشرة ساعة متواصلة دون أن تأكل شيئاً !

كان لا يزال مهتاجاً بنشوة السيارة الجديدة . وبرغم نومه القليل والمتقطع بالطائرة ، أحس بانتعاش وبأنه يستطيع القيادة حتى باريس بلا كلل . قال :

ـ لم أستنفد بعد غداء السفارة .

واستطرد قائلاً بلا أى منطق :

ـ على أية حال ، ما زالت ساعة الخروج من السينما فى قرطاجنة . ربما كانت الساعة فى حدود العاشرة .

خشيت نينا داكونتى أن يغلبه النعاس خلف عجلة القيادة . فضت إحدى علب الهدايا الكثيرة التى قدمت إليهما فى مدريد وحاولت أن تضع فى فمه قطعة من حلوى البرتقال ، لكنه تجنب يدها . قال :

ـ لا يأكل الذكور الحلوى .

انقشع الضباب قبل« أورلينز » بقليل وبسط قمر وضاء نوره على المزارع

التي كساها الجليد ، لكن حركة السيارات صارت أقل سيولة لتكاثر شاحنات الخضراوات الضخمة ، وأخرى تحمل صهاريج النبيذ ، في طريقها إلى باريس . ودت نينا داكونتي لو عاونت زوجها خلف عجلة القيادة ، لكنها لم تجرؤ على مجرد التلميح بذلك لأنه كان قد نبهها منذ المرة الأولى التي خرجا فيها معاً إلى أنه ليس ثمة مهانة تفوق مهانة رجل يسمح لامرأة أن تقود سيارة بدلاً منه .

كانت تشعر بالانتعاش بعد خمس ساعات من النوم الهادىء ، بل وبالسعادة لعدم توقفهما في فندق عرفته منذ صغرها في سفراتها العديدة بصحبة والديها بمقاطعات فرنسا . اعتادت أن تقول : « لا توجد في العالم مناظر طبيعية أجمل من هذه لكن بوسعك أن تموت ظمأ دون أن تجد أحداً يعطيك كوب ماء بلا مقابل» .

كانت على يقين من أنها وضعت في اللحظة الأخيرة ، صابوناً وورق تواليت في حقيبة يدها لأن فنادق فرنسا ليس بها صابون ولأن ورق المراحيض لا يعدو عن كونه ورق صحف الأسبوع السابق تم قصه في شكل مربعات صغيرة وعلق في خطاف . في تلك اللحظة ، لم تأسف سوى لضياع ليلة كاملة بلا حب .

جاءت إجابة زوجها في الحال . قال :

ـ في نفس هذه اللحظة كنت أفكر في أن الحب في الجليد قد يكون ممتعاً . الآن إذا أردت ...

فكرت نينا داكونتي جدياً في الأمر . على جانب الطريق ، كانت للجليد تحت ضوء القمر هيئة وثيرة ودافئة ، لكنهما كلما اقتربا من ضواحي باريس اشتدت كثافة المرور ، وكانت ثمة مصانع متفرقة مضاءة وعمال كثيرون فوق دراجاتهم . لو لم يكن فصل الشتاء لطلع النهار . قالت نينا داكونتي :

ـ أفضل أن ننتظر حتى باريس لننعم بالدفء في فراش بملاءات نظيفة كالمتزوجين .

قال هو :

ـ هذه أول مرة تخذلينني فيها .

أجابته هي :

ـ بالطبع ، هذه هي المرة الأولى بعد زواجنا .

قُبيل طلوع الشمس ، غسلا وجهيهما وتبولا في حانة على الطريق وتناولا قهوة و « كرواسن » على طاولة الحانة بينما كان سائقو الشاحنات يحتسون النبيذ الأحمر في إفطارهم . وجدت نينا داكونتي آثار دماء على قميصها وتنورتها ولكنها لم تشأ أن تزيلها . ألقت بالمنديل الملوث في القمامة ونقلت خاتم الزواج إلى يدها اليسرى وغسلت إصبعها الجريح جيداً بالماء والصابون . كان الجرح لا يكاد يرى ، ومع هذا ، ما أن عادا إلى السيارة حتى عاود النزيف ، فأخرجت نينا داكونتي ذراعها من نافذة السيارة متيقنة من أثر هواء المزارع الكاوي .

لم تكن لذلك العلاج جدوى لكنها لم تقلق بعد . قالت بسحرها الطبيعي « إذا أراد أحد أن يعثر علينا فلن يجد في ذلك مشقة . عليه فقط أن يقتفي أثر دمي على الجليد » . ثم تمعنت جيداً فيما قالت وأزهر محياها مع أولى أشعة الصبح قالت :

ـ تخيل : أثر دم على الجليد ، من مدريد حتى باريس . ألا يبدو ذلك جميلاً لأغنية ؟

لم يسعفها الوقت للتأمل . عند ضواحي باريس ، صار إصبعها معينا لا

يتوقف وشعرت هى أن روحها تنفذ من جرحها . حاولت وقف النزيف بورق التواليت الذى تحمله فى حقيبة يدها لكنها كانت تستغرق وقتاً أطول فى شده إلى الإصبع من إلقاء الورق الملوث من النافذة .

أخذت ملابسها ومعطفها ومقعدا السيارة تتشبع بالدم في بطئ لكن بلا توقف . ذعر بيلى سانشث ذعراً حقيقياً وأصر على البحث عن صيدلية بيد أنها، في تلك اللحظة – كانت تعى أن الأمر لم تعد تكفيه صيدلية . قالت :

- أصبحنا على أبواب أورلينز . واصل السير إلى الأمام ، بشارع الجنرال لوكليرك ، أوسع هذه الشوارع وبه أشجار ، وسأخبرك فيما بعد بما تفعل .

كانت أشد مراحل الطريق صعوبة . كان شارع الجنرال لوكليرك عقدة جهنمية من السيارات الصغيرة والدراجات البخارية المزدحمة في كلا الاتجاهين ومن الشاحنات التى تحاول الوصول إلى الأسواق المركزية .

كان بيلى سانشث ، من فرط توتره بسبب دوى أبواق السيارات العقيم ، يتبادل السباب مع سائقين آخرين مستخدماً لغة الزناجير ، وأراد الترجل من سيارته ليشتبك بأحدهم ،لكن نينا داكونتى تمكنت من اقناعه بأن الفرنسيين أشد شعوب الأرض بذاءة لكنهم لا يشتبكون بالأيدى مطلقاً . كانت تلك علامة أخرى من علامات حكمة نينا داكونتى التى كانت تبذل محاولات مستميتة حتى لا تفقد الوعى .

احتاجا ما يربو على الساعة للخروج فقط من ميدان « ليون دويلفور » . كانت أنوار المقاهى والمحال مضاءة كأنها في منتصف الليل ، فقد كان يوم ثلاثاء تقليدياً من شهر يناير الباريسى ، غبشاً ومغبراً ، يسقط فيه رذاذ عنيد لا يصل إلى جليد . بيد أن شارع دنفر - روشرو كان أقل ازدحاماً

. وبعد تجاوز عدة شوارع ، أشارت نينا داكونتي إلى زوجها بأن ينحرف يميناً عند الناصية ، وأوقف السيارة في مواجهة مدخل استقبال مستشفى ضخم وكئيب .

لم تتمكن من الخروج من السيارة بمفردها ، لكنها لم تفقد هدوءها أو وعيها . بينما كانت تنتظر مقدم الطبيب المنوب ، مستلقية على السرير المتحرك ، أجابت عن أسئلة الممرضة المعتادة عن هويتها وتاريخها المرضي . حمل بيلي سانشث حقيبتها وضغط يدها اليسرى التي كانت تحمل حينئذ خاتم الزواج ، وأحس بهزالها وبرودتها ، وكانت شفتاها قد فقدتا نضارتهما . مكث بجوارها ، يدها في يده ، حتى حضر الطبيب وتفحص بنصرها المجروح في سرعة . كان رجلاً في مقتبل العمر بشرته بلون النحاس القديم ورأسه حليق .

لم تلق نينا داكونتي بالا إليه ، وابتسمت لزوجها ابتسامة رقيقة . قالت له بدعابتها التي لا تقهر :

ـ لا تخش شيئاً . إن كل ما يمكن أن يحدث لي هو أن يقطع هذا المتوحش يدي ليأكلها .

أنهى الطبيب فحصه وعندئذ فاجأهما بإسبانية صحيحة جداً وبلهجة آسيوية غريبة . قال :

ـ كلا ، أيها الشابان . يفضل هذا المتوحش أن يموت جوعاًقبل أن يقطع يداً بهذا الحسن !

شعرا بالحرج فهدأ الطبيب من روعهما بإيماءة لطيفة ثم أمر بأن يحملوها في السرير ، وأراد بيلي سانشث أن يذهب معها ممسكاً بيد زوجته فاستوقفه الطبيب بذراعه ، وقال له :

ـ أنت لا ، فهى ذاهبة إلى الرعاية المركزة .

عـاودت نينا داكـونتي الابتسـام لزوجـهـا وظلت تودعـه بيدها حتى اختـفى السـرير فى نهايـة المـر . مكث الطبيب ليلقى نظرة على البيانـات التى دونتها المرضـة فى لوحـة . صاح بيلى سانشث قائـلاً له :

ـ دكتور ، إنها حامل .

ـ فى أى شهر ؟

ـ فى الشهر الثانى .

لم يعر الطبيب ذلـك الأهمية التى كان يفترضها بيلى سانشث ، لكنه قال : « فعلت خيراً بإبلاغى » ثم اختفى فى إثر السرير . مكث بيلى سـانشث فى القاعة الكئيبة التى فاحت منها رائحة عرق المرضى ، مكث دون أن يدرى مـاذا يفعل محملقاً فى المر المقفر من حيث ذهبت نينا داكونتي ، ثم جلس على المقعد الخشبى الذى جلس عليه أشخاص آخرون ينتظرون . لم يدرك كم من الوقت قضاه هناك بيد أنه حين قرر الخروج من المستشفى كان الظلام قد حل من جديد واستمر سقوط الرذاذ وبقى هو يرزح تحت ثقل العالم ، لا يدرى مـاذا يفعل حتى بنفسه .

حجـزت نينا داكونتي بالمستشفـى فى التاسعة والنصف من صباح يوم الثلاثاء ، السـابع من يناير ، حسبمـا تثبت من ذلك بعد عـدة سنوات فى أرشيف المستـشـفى . فى تلك الليلة ، قـضى بيلى سـانشـث الليل فى سيـارته الواقفة أمـام بوابة الاستقبال ، وفى الصبـاح المبكر من اليـوم التـالى ، تنـاول ست بيضات مسلوقة وفنجانى قهـوة بالحليب فى مقهـى قريب ، فهو لم يكن قد تنـاول وجبة كاملة منذ ترك مدريد . ثم عـاد إلى بهـو

الاستقبال ليرى نينا داكونتى ولكنهم أفهموه أن عليه التوجه إلى الباب الرئيسى .

هناك ، عثروا بعد لأى على إسبانى من أستورياس* عاونه فى التفاهم مع الحارس . ووجد هذا بالفعل أن نينا داكونتى حجزت بالمستشفى بيد أنهم لا يسمحون بزيارتها إلا أيام الثلاثاء من التاسعة صباحاً إلى الرابعة ، أى بعد ستة أيام . حاول لقاء الطبيب الذى كان يتحدث الإسبانية ، والذى وصفه بأنه زنجى حليق الرأس فلم يتعرف عليه أحد بهاتين الصفتين غير الدقيقتين .

بعد أن زال بعض قلقه لتأكده من وجود نينا داكونتى بالمستشفى ، عاد إلى حيث ترك سيارته فأرغمه شرطى المرور على الوقوف بالسيارة على مسافة مربعين إلى الأمام ، فى شارع ضيق وعلى جانب الأرقام الفردية . على الجانب الآخر ، كانت هناك بناية جددت حديثاً عليها لافتة « أوتيل نيكول» وعليها نجمة واحدة وبها صالة استقبال صغيرة لا يوجد بها إلا أريكة واحدة وبيانو رأسى قديم ، لكن صاحب الفندق ذا الصوت الرخيم كان قادراً على التفاهم مع عملائه بأية لغة شريطة أن يكون لديهم ما يدفعونه .

أقام بيلى سانشث ومعه إحدى عشرة حقيبة وتسع علب هدايا فى الغرفة الوحيدة الشاغرة ، وكانت حجرة مثلثة الزوايا فى الدور التاسع والأخير يمكن الوصول إليها بشق الأنفس عن طريق سلم حلزونى له رائحة زبد الكرنب المسلوق . كانت الحوائط مبطنة بأبليكات بائسة ، ولم تكن الشرفة تتسع إلا

---

* مقاطعة إسبانية وإقليم حكم ذاتى فى التقسيم السياسى الجديد .

لبصيص الضوء القاتم الصادر من الفناء الداخلى . وكان هناك فراش يتسع لشخصين ، وخوان ملابس كبير ، وكرسى متواضع و « بيديه » نقال وإبريق وإجانة ، بحيث تصبح الطريقة الوحيدة للتواجد فى الغرفة هى الاستلقاء فى الفراش . كان كل شىء أسوأ من أن يكون قديماً أو تعساً ولكنه نظيف أيضا وله رائحة الدواء الصحية .

ربما أمضى شخص كبيلى سانشث عمره كله دون أن يجد تفسيراً لألغاز ذلك العالم الذى تأسس على موهبة الشح . لم يستطع قط أن يفهم سر ضوء السلم الذى ينطفىء دائما قبل أن يصل هو إلى الطابق التاسع ، ولم يكتشف مطلقا طريقة إشعاله مرة أخرى . وقضى نصف يوم ليتعلم أن بكل طابق حجرة ضيقة بها مرحاض ، وكان قد قرر استخدامه رهين الظلمات عندما اكتشف عن طريق الصدفة أن المصباح يضىء إذا قفل مزلاج الباب من الداخل حتى لا يتركه أحد مضيئاً إن نسى . أما الحمام الكائن بالطرف الآخر من الممر والذى أصر هو على استخدامه مرتين كل يوم كما تعود فى بلاده فكان له سعر منفصل ويدفع نقداً وكان الماء الساخن الذى يتحكم فيه صاحب الفندق ينتهى بمرور ثلاث دقائق .

مع هذا ، أدرك بيلى سانشث بجلاء شديد أن ذلك النظام المغاير تماماً لنظام حياته كان أفضل بأية حال من الخلاء فى شهر يناير ، إضافة إلى أنه كان يشعر بالحيرة والوحشة الشديدة حتى أنه لم يستطع أن يفسر كيف أمكنه العيش مرة بعيدا عن كنف نينا داكونتى ؟

ما أن صعد إلى غرفته ، فى صباح يوم الأربعاء ، حتى تهالك على الفراش مستلقياً على بطنه ودون أن يخلع معطفه ، يفكر فى محبوبته التى ما زالت تنزف على الرصيف المقابل .

وراح في الحال في سبات طبيعي تماماً إلى حد أنه حين استيقظ ، وكانت ساعة يده تشير إلى الخامسة ، لم يكن بوسعه التكهن إن كانت الخامسة مساء أم الخامسة فجراً ولا في أي يوم من أيام الأسبوع ولا في أية مدينة يسوط زجاجها الرياح والمطر ؟

مكث في فراشه مترقباً ، يفكر في نينا داكونتي ،حتى تيقن حقيقة من طلوع الصبح . عندئذ توجه إلى نفس المقهى ليتناول إفطاره ، وهناك علم أنه كان يوم الخميس .

كان المطر قد توقف وأضيئت أنوار المستشفى ، فاتكأ على جزع شجرة قسطل في مواجهة باب المستشفى الذي يخرج منه الأطباء والممرضات في معاطفهم البيضاء ، على أمل العثور على الطبيب الآسيوي الذي استقبل نينا داكونتي . لم يره لا في الصباح ولا بعد الغداء حين أقلع عن الانتظار لأنه كاد يتجمد من القر . في السابعة ، تناول قدحا آخر من القهوة بالحليب وبيضتين مسلوقتين اختارهما بنفسه من واجهة العرض ، بعد ثمان وأربعين ساعة أكل فيها نفس الشيء في نفس المكان .

عندما عاد إلى الفندق بنية الخلود إلى النوم وجد سيارته وحدها على جانب من الشارع وبقية السيارات على الجانب المقابل ، وقد وضع على زجاج السيارة إشعار بغرامة .وبذل حارس « أوتيل نيكول » مجهوداً خارقاً ليشرح له أنه ، في الأيام الفردية من الشهر ، يمكنه أن يوقف سيارته في جانب الأرقام الفردية من الشارع . وفي اليوم التالي ، في الجانب الآخر . لم تفده في شيء كل الحيل العقلانية ليقنع شخصاً قحاً كسانشث اقتحم منذ عامين لا أكثر سينما الحي بسيارة عمدة المدينة الرسمية وتسبب في أضرار مميتة ، على مرأى من رجال الشرطة الساكنين . ولم يقتنع عندما نصحه حارس الفندق بدفع

مبلغ المخالفة ويألا يحرك السيارة من مكانها في تلك الساعة وإلا سيضطر لنقلها من مكانها مرة أخرى ابتداء من منتصف الليل .

في فجر ذلك اليوم ، ولأول مرة ، لم ينحصر فكره في نينا داكونتي بل أخذ يتقلب في فراشه مؤرقاً يفكر في لياليه المزعجة في حانات الشواذ في السوق العامة بقرطاجنة الكاريبي ، تذكر مذاق السمك المقلي وأرز جوز الهند في مطاعم الميناء حيث ترسو سفن آروبا* . تذكر منزله وجدرانه المغطاة بالبنفسج حيث الساعة هناك الآن حوالي السابعة من مساء أمس ، ورأى والده في بيجامته الحريرية يقرأ الصحيفة في الشرفة .

تذكر أمه التي لم يعلم قط أين هي في أية ساعة من ساعات النهار ، أمه « اللذيذة » والثرثارة في ثوبها الجميل وهي تضع وردة في أذنها مع حلول المساء وتعاني من الحرب بسبب قماش فستانها الرائع . في مساء أحد الأيام ، عندما كان في السابعة من عمره ، دخل حجرتها بغتة وفاجأها عارية مع أحد عشاقها العارضين . تلك الحادثة التي لم يتحدث بشأنها قط ، أقامت بينهما علاقة تآمر كانت أشد نفعاً من الحب . ولكنه لم يكن يعي ذلك ولا يعي أشياء أخرى رهيبة في وحدته كابن وحيد ، حتى كانت تلك الليلة التي ألفى فيها نفسه يتقلب في سرير غرفة بائسة على السطح بباريس ، دون أن يجد من يصغي لشكواه من سوء طالعه ، ويشعر بغضب عارم من نفسه لفشله في كبح جماح رغبته في البكاء .

كان أرقه صحياً ، ففي يوم الجمعة صحا مجهداً من أثر السهاد ولكنه قد وطد عزمه أيضاً على البحث عن معنى لحياته . وأخيراً ، قرر أن يفض قفل حقيبته ليستبدل ملابسه ، لأن المفاتيح جميعها كانت بحقيبة يد نينا داكونتي

* آروبا (ARUBA) : إحدى جزر الأنتيل الهولندية .

ومعها الجزء الأكبر من النقود وأجندة أرقام الهاتف والتي ربما احتوت على رقم تليفون شخص ما من معارفه في باريس .

في المقهى المعتاد ، التفت إلى أنه تعلم إلقاء التحية بالفرنسية وكذا طلب شطائر لحم الخنزير والقهوة بالحليب . وأدرك في ذات الوقت أنه ليس بوسعه أن يطلب زبداً أو بيضاً على أي نحو لاستحالة نطقهما بالفرنسية ، على أنهم كانوا يقدمون له زبداً مع الخبز دائماً وكان البيض المسلوق على مرأى من الجميع في واجهة العرض ويؤخذ باليد بدلاً من طلبه . كما أن العاملين بالمطعم ، بعد أن مرت ثلاثة أيام ، كانوا قد اعتادوا تواجده ويعاونونه في بلوغ ما يريد .

لذا ففي يوم الجمعة ، في محاولة لإعادة رأسه إلى مكانه الصحيح ، طلب شريحة لحم بقري وبطاطس محمرة وزجاجة نبيذ . ساعتئذ ، شعر بانتعاش كبير فطلب زجاجة أخرى تجرع نصفها وعبر الشارع وقد انتهى إلى قرار حاسم بدخول المستشفى بالقوة . لم يكن يعرف أين بوسعه العثور على نينا داكونتي لكن ذهنه كان قد توقف عند صورة الطبيب الآسيوي المنقذة وكان متيقناً من أنه سيجده .

لم يدخل من الباب الرئيسي وإنما من باب الاستقبال فقد تراءى له أنه لم يكن مراقباً كالباب الآخر ، غير أنه لم يتمكن من تجاوز الممر الذي ودعته فيه نينا داكونتي بيدها . سأله حارس يرتدي معطفاً أبيض ملوثاً بالدماء شيئاً ما عندما مر به ولكنه لم يلتفت إليه . سار الحارس في إثره مكرراً دائماً نفس السؤال بالفرنسية ، وأخيراً أمسك بذراعه في قوة شديدة واستوقفه في مكانه .. حاول بيلي سانشث التملص منه بحركة اعتاد اللجوء إليها من قبل . فسبّه الحارس بالفرنسية ولوى ذراعه خلف ظهره بيده الفولاذية ودون أن يكف عن سبابه البذيء ، حمله حملاً تقريباً ، غاضباً من شدة الألم ، وألقى به وسط الشارع كأنه جوال بطاطس .

في ذلك المساء ، بعد أن آلمه العقاب ، نضج بيلى سانشث ، وقرر مقابلة سفير بلاده ، مثلما كانت ستفعل نينا داكونتي . عثر حارس الفندق ، الذى كان خدوماً جداً وصبوراً فى مسألة اللغات برغم هيئته الفظة ، على رقم هاتف وعنوان السفارة فى دليل التليفونات وسجلهما له في بطاقة . أجابته سيدة دمثة تعرف بيلى سانشث فى صوتها المتأنى والخابى على لكنة الأنديز .

بدأ بذكر اسمه كاملاً متيقناً من أن لقبيه سيتركان أثراً ما فى السيدة ، لكن الصوت لم يتغير عبر الهاتف . سمعها تشرح له عن ظهر قلب درس أن سعادة السفير ليس متواجداً فى تلك اللحظة في مكتبه وأنهم لا ينتظرونه حتى اليوم التالى وأنه ، على أية حال ، ليس بوسعه أن يقابله دون موعد مسبق وإلابصدد أمر عاجل فقط . أدرك بيلى سانشث حينئذ فقط أنه لن يصل إلى نينا داكونتي من هذه الطريقة أيضاً فشكر السيدة بنفس الدماثة ثم استقل سيارة أجرة وذهب إلى السفارة .

كانت فى رقم ٢٢ بشارع الإليزيه ، إحدى المناطق الوادعة بباريس . لكن ما ترك عميق الأثر فى نفس بيلى سانشث ، طبقا لما رواه بعد ذلك بسنوات عديدة فى قرطاجنة دى إندياس ، أن الشمس كانت ساطعة كشمس الكاريبى لأول مرة منذ مجيئه ولاح برج إيفل فوق المدينة وسط سماء صحو .

عنّ له المسئول الذى استقبله بدلاً من السفير خارجاً لتوه من مرض عضال. ليس لهيئة بذلته ، من قماش الجوخ الأسود ، وياقته الضيقة وربطة عنقه بلون الحداد فحسب ، وإنما أيضاً بسبب إيماء اته الحيية ووهن صوته . تفهم مخاوف بيلى سانشث ولكنه ذكَّره ، دون أن يخرج عن دماثته ، بأنهما فى بلد متحضر تقوم مبادئه الصارمة على أشد الأسس عراقة وحكمة ، على عكس أمريكا البربرية حيث تكفى رشوة الحارس لدخول المستشفيات ، وقال له :

« كـلا ، أيهـا الشـاب العـزيز » .. لم يكن ثم مناص من الخـضـوع إلى امبراطورية العقل والانتظار حتى يوم الثلاثاء .

واختتم حديثه قائلاً :

- على أية حـال ، بقيت أربعـة أيام فـقط . حـتى ذلك الحين ، اذهب إلى اللوفر ، إنه ليستحق المشاهدة .

عندما خرج من هناك ، ألفى بيلى سانشث نفسه في ميدان الكونكورد ، وبدون أن يدرى ماذا عساه أن يفعل رأى برج إيفل فوق أسطح المنازل وتراءى له قريباً منه فحاول الوصول إليه سيراً على قدميه . وسرعان ما فطن إلى أنه أبعد كثيراً مما يبدو وأن مكانه يتغير كلما سعى فى طريقه إليه . لذا جلس على مقعد على ضفة نهر السين وطفق يفكر فى نينا داكونتى .

شاهد مرور الروافع تحت الجسور ولم تعنّ له مراكب بل بيوتاً مرتحلة خضبت سقوفها بالحمرة واصطفت أصص الزهور على حواف شرفاتها ، وعلى متونها حبال علقت عليها ملابس لتجف . جلس وقتاً طويلاً يراقب صياداً لا يتحرك فى مكانه ، شصه ساكن وخيط الشصّ ساكن أيضاً وسط التيار ، وكل فى انتظار أن يتبدل أى شىء لكن شيئاً لم يتبدل عندما بدأ حلول الظلام.

قرر أن يستقل سيارة أجرة ليعود إلى الفندق . عندئذ فقط تذكر أنه يجهل اسم وعنوان الفندق ، تذكر جهله التام بالحى الكائن به المستشفى .

دخل أقرب مقهى وطلب كأس كونياك وجرّب أن يرتب أفكاره . وبينما كان يفعل ، رأى نفسه وقد تضاعف عدة مرات ومن زوايا مختلفة فى المرايا العديدة المعلقة بالحوائط ، وألفى نفسه خائفاً ووحيداً وفكر فى حقيقة الموت للمرة الأولى منذ ولادته . شعر بتحسن بعد الكأس الثانية وطرأت على ذهنه فكرة

منقذة وهى العودة إلى السفارة . بحث عن البطاقة فى جيبه ليتذكر اسم الشارع فاكتشف اسم الفندق وعنوانه فى ظهرها .

انتابه إحباط شديد من جراء تلك التجربة ولم يعاود الخروج من الفندق خلال نهاية الأسبوع إلا ليصيب حظاً من الطعام أو ليغير مكان السيارة إلى الرصيف الصحيح . على مدى ثلاثة أيام ، سقط بلا توقف ذات الرذاذ المغبر كيوم مجيئهما وتمنى بيلى سانشت الذى لم يقرأ كتاباً كاملاً فى حياته لو أن معه كتاباً حتى لا يملّ الاستلقاء فى الفراش ، لكن الكتب التى عثر عليها فى حقائب زوجته كانت مكتوبة بلغات أخرى غير الإسبانية .

وهكذا شرع ينتظر مقدم يوم الثلاثاء ، يرنو إلى الطواويس المتكررة على ورق الحائط ودون أن يكف عن التفكير فى نينا داكونتى لحظة واحدة . فى يوم الإثنين ، قام بترتيب حجرته متخيلا ما قد تقوله هى لو رأتها على تلك الحالة ، واكتشف ساعتئذٍ أن معطف البيسون ملوث بدم جاف . قضى المساء فى غسله بالصابون المعطر الذى عثر عليه فى حقيبته حتى أعاده إلى ما كان عليه حين حُمل إلى الطائرة فى مطار مدريد .

بزغ فجر يوم الثلاثاء غبشاً وجليدياً وبلا رذاذ . استيقظ بيلى سانشث فى السادسة وانتظر بباب المستشفى شأنه شأن عدد كبير من أقارب المرضى الذين يحملون علب الهدايا وأغصان الزهور . دخل مع الجمع حاملاً معطف البيسون على ذراعه دون أن يسأل عن شيء ، دون أن يدرى شيئاً عن مكان نينا داكونتى ، ولكنه يحيا على أمل العثور على الطبيب الآسيوى .

مر بفناء داخلى ضخم به أزهار وطيور برية وعلى جانبيه عنابر المرضى : السيدات إلى اليمين والرجال إلى اليسار .

دخل عنبر السيدات إثر بقية الزائرين . شاهد صفاً طويلاً من النساء

الجالسات على الأسرة يرتدين ملابس المستشفى وقد دخلت مساحات كبيرة من الضوء من الشرفات ، ففكر في أن كل ذلك لأشد بهجة مما يمكن تخيله من الخارج . وصل نهاية الممر ثم عاد مرة أخرى في الاتجاه الآخر ، حتى اقتنع بأن نينا داكونتي ليست هناك . ثم جال بالرواق الخارجي ينظر عبر الشرفات إلى غرف الرجال حتى خيل إليه أنه رأى الطبيب الذى كان ينشده .

كان هو بالفعل ، بصحبة أطباء آخرين وممرضات يقومون بفحص أحد المرضى . دخل بيلي سانشث الحجرة وأزاح إحدى الممرضات من مكانها وواجه الطبيب الآسيوى الذى كان منحنياً أمام المريض . ناداه . رفع الطبيب عينيه وتعرف عليه . قال :

– أين كنت بحق الشيطان ؟

تحير بيلي سانشث . أجابه :

– في الفندق ، قريباً من هنا !

حينئذ عرف حقيقة ما حدث . كانت نينا داكونتي قد قضت نحبها إثر نزيف في السابعة وعشر دقائق من مساء الخميس التاسع من يناير ، بعد سبعين ساعة من جهود أمهر الأطباء المتخصصين في فرنسا ضاعت سدى . وظلت هي هادئة وواعية وأصدرت أوامر بالبحث عن زوجها في فندق « بلاثا اتينيه» حيث حجزت غرفة باسمهما وأعطتهم بيانات كي يخابروا والديها . وأبلغت القنصلية السفارة ببرقية أرسلتها يوم الجمعة ، بينما كان والدا نينا داكونتي يستقلان الطائرة إلى باريس ، وقام السفير شخصياً بإجراءات تحنيط الجثة ومراسم الجنازة وظل على اتصال دائم بإدارة شرطة باريس للعثور على بيلي سانشث ، وأذيع نداء عاجل بالراديو والتليفزيون بأوصافه وبياناته من ليل الجمعة حتى مساء الأحد ، وكان خلال الثماني والأربعين ساعة تلك أهم شخص

تبحث عنه فرنسا ، وعلقت فى كل مكان صورته التى وجدوها فى حقيبة يد نينا داكونتي، وتم العثور على ثلاث سيارات من ماركة « بنتلي » لم تكن أى منها سيارته .

كان والدا نينا داكونتي قد وصلا ظهر يوم السبت وسهرا على جثمانها بكنيسة المستشفى حتى آخر لحظة على أمل العثور على بيلى سانشث . وأبلغ والداه أيضاً بالنبأ وكانا على وشك السفر إلى باريس لكن خطأ فى البرقيات حال دون ذلك . وأقيمت مراسم الجنازة فى الثانية من بعد ظهر الأحد ، على مسافة مائتى متر لا أكثر من الحجرة الموحشة التى كان يسكنها بيلى سانشث وحيداً ، يحتضر من حبه لنينا داكونتي .

أما مسئول السفارة فقد قال لى بعد ذلك بعدة سنوات إنه تلقى بنفسه برقية القنصلية بعد ساعة واحدة من ذهاب بيلى سانشث من مكتبه ، وإنه ظل يبحث عنه فى حانات « فوبورج سان أونوريه» السرية واعترف لى بأنه ، حين استقبله ، لم يعره اهتماماً كبيراً ، فهو لم يكن يتخيل أن يكون ذلك الكاريبى المذعور لزيارة باريس لأول مرة ، بمعطفه الجلدى غير المهندم ، من أصل بهذه العراقة .

فى مساء نفس يوم الأحد ،. بينما كان هو يحبس دموع عجزه ، عدل والدا نينا داكونتي عن البحث عنه وحملا معهما جثمانها المحنط داخل تابوت معدنى ، وظل من شاهدوها يحكون ، بعد ذلك بسنوات عديدة ، أنهم لم يروا مثل ذلك الحسن من قبل فى امرأة حية أو ميتة . أى أنه ، عندما دخل بيلى سانشث ، فى نهاية الأمر ، المستشفى ، صباح يوم الثلاثاء ، كانت طقوس الدفن قد أقيمت بمقابر العائلة الحزينة بـ « لامانجا » ، على بعد خطوات من المنزل الذى كانا هما قد اكتشفا فيه أول أسرار السعادة .

أراد الطبيب الآسيوى ، بعد أن أبلغ بيلى سانشث بما حدث ، أن يعطيه بعض المسكنات ، فى بهو المستشفى ، لكنه رفضها . ورحل دون أن يودعه ، دون أن يجد ما يشكره عليه ، يفكر فى أن كل ما يحتاجه هو أن يشج أحد أم رأسه بزنجير لينتقم من تعاسته .

عندما خرج من المستشفى ، لم يحفل بـأن السماء تمطر جليداً بلا آثار دم ، جليداً بدت ندفه الهشة والنقية كأجنحة الحمائم ، لم يلتفت إلى أن شوارع باريس اكتست بهيئة احتفالية ، فقد كانت تلك أول عاصفة جليدية حقيقية تهب منذ عشر سنوات .

١٩٧٦



دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع

هى مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربى والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربى من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون فى متناول أبناء الأمة .. فهذه الدار هى حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهى نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب فى مجالات الابداع المختلفة .

طبع بمطابع دار الهلال

١٢ حكاية عجيبة

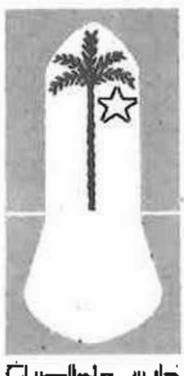
.. كتبت قصص هذه المجموعة على مدى الثمانية عشر عاما الأخيرة . كانت تجربة ابداعية تستحق التفصيل . على الأقل حتى يعرف الاطفال الذين يريدون أن يصبحوا كتابا ، ما في مهنة الكتابة من حيرة وقلق .. واتتنى فكرتها الاولى في مطلع الستينات . كنت قد انتهيت من « خريف البطريرك » أشد اعمالى وعورة ومعاناة . ولا اجد الطريق إلي مواصلة الكتابه بسهولة .

يعدل مجهود كتابة قصة قصيرة . نفس مجهود بداية أية رواية ، أول فقرة ينبغى أن تحدد بنية ولهجة وطول العمل . بعد هذا تأتى متعة الكتابة . اعظم المتع حميمية ووحدة على الاطلاق .

ليس للقصة القصيرة بداية أو نهاية : قد تصيب وقد تخفق وإذا لم تصب فالأصح هو الشروع فى كتابتها من جديد وفى إتجاه آخر ، أو إلقائها فى القمامة .

على أية حال ، ومنعا للحيرة ، لن أعاود قراءتها ، مثلما لم أعاود قراءة أى كتاب من كتبى ، خشية الندم .. ومن يقرأها فهو حر فيما يفعل بها .

جابرييل جارثيا ماركث



دار سعاد الصباح